مذاهب وشخصيات

أبو حامد الغزالي

المفكر الثائر

بقلم

محمد صادق عرجون

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أوزعني شكرك بما يليق بعظيم نعمك ، وألهمني حمدك بما يبلغ رضاك ، استمطارا لغيث فضلك يا عظيم الفضل والاحسان .

وأسألك بنور وجهك الذى اضاءت له السموات والارضين أن تصلى وتسلم على خاصتك من خيرة خلقك محمد خاتم النبيين صلاة وسلاما يبلغان من رضاك أن تملأ قلوبنا بحب حبيبك ، وتعرفنا قدره العظيم عندك لنكون فى ظل لوائه يوم تكريمه منك بلواء الحمد.

أما بعد . فهذا بحث عن الامام اللوذعى ، العليم العبقرى حجة الاسلام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه .

كتبته ملخصا اجابة لطلب المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية اذ كتب الى فى مناسبة مهرجان الغزالى بدمشق أن أعد بحثا يلقى أو ملخصه فى حفل المهرجان فكتبت ذلك الملخص ومضى المهرجان فى رعاية المجلس الموقر ، ــ ومضى البحث الى حيث شاء من بيدهم أمره .

وكنت اذ صحبت الغزالى فى كتبه وما كتب عنه حين اعداد بحث المهرجان رأيت أن أبا حامد رحمه الله أعمق من مقال أو بحث ملخص يعد على عجل ، ومع أن الغزالى عظيم الحظ فى التاريخ ، والكتابة عنه كثيرة لكنه لا يزال يسع الباحثين بعلمه وعقله وقلبه .

وكنت أضمرت العزم أن أعيد النظر فى كتابة بحث أوفى عن هذا الامام بعدما رأيت تعدد مناحيه ، وأن الكاتبين لم يوفوه حقه ، ولاتزال فيه جوانب غامضة ، ولايزال فى كتبه موضوعات لم يمسسها الباحثون الا برفق .

لذلك كتبت هذا البحث ليكون سطرا فى تاريخ هذا العبقرى العليم ، وانى أرفعه الى شباب الاسلام فى أقطار الارض ليقرؤا من تاريخ أسلافهم مايعرفون به مكانة أمتهم من حياة العبقرية والعبقريين . والله يهدى من يشاء الى سراط مستقيم .

عصر الغزالى

القرن الخامس الهجرى الذى كان مغدى حياة أبى حـــامد الغزالى ومراحها ، ومسرحها الذى كانت تسرح فى أودية معارفه ، تطوف بآفاته ـ أو على التحقيق ـ النصف الثانى من ذلك القرن الذى عاشه هذا الامام العبقرى ، وقضى حياته متقلبا فى ارجائه كان أشبه بمحيط يموج بشتى تيارات الافكار والعلوم والمعارف ، والفلسفات والعقائد والمذاهب والنحل وتندفع الى خضمه من جميع جوانبه روافد من التراث الفكرى لتصب فيه عصارة الفكر الانسانى فى مدى قرون من الماضى السحيق منذ كان للعقل البشرى سلطان النظر فى الكون وتعمق أسرار الوجود .

فعصر أبى حامد عصر انتهت اليه صفوة الدراسات الاســـلامية فى القرآن العظيم وتفسيره وقراءاته ولغته وألفاظه ، وأسلوبه ، وبلاغته ، ونظمه ووجوه اعجازه ، وسائر علومه وفنونه .

كما انتهت اليه خلاصة الدراسات الاســـلامية فى السنة النبوية دراية ورواية ونقلا وتمحيصا وفهما وتفقها وتدوينا . واختلاف أنظـــار العلماء فى استنباط الاحكام ومواقع الاجتهاد من أصولها .

كما وصلت اليه آثار الصحابة . وآثار تلاميذهم من أئمة التابعين علما وعملا وآثار من جاء بعدهم من أئمة العـــلم وطرائقهم فى استنباط الاحكام للحوادث التى جدت ، وغمرت الحياة بكثرتها فى الفتوحات التى كانت «بوتقة» انصهرت فيها عملية امتزاج الامم والشعوب التى استظلت على أيدى الفاتحين بظل الاسلام ودخلت فى ساحته مؤمنة صادقة الايمان أو مسالمة تتربص لتعرف موقفها من الأحداث المفاجئة وموقفها من هـــذا الدين الجديد الذى غير عليهم معالم الحياة ، وفتح لهم منافذ الهـــدايا ودعاهم الى معرفة حقيقة انسانيتهم ـ ودعاهم الى التـــحرر الفـــكرى ليتخلصوا من عبودية العقائد والافكار الموروثة ، ويعيشوا عيشة انسانية كريمة .

وهذه الدراسات فى أصلى الاسلام ـ القرآن والسنة ـ هى التى استقر على أساسها الاجتهاد التشريعى فى الفقه الاسلامى فى عصـــور الائمة الاربعة وتلاميذهم وأضرابهم من اهـــل الاستنباط وتخريج أحكام الفروع من أصولها .

وهى التى ثارت من حولها قبل ذلك وبعده الاختلافات الفكرية فى جوانب العقيدة التى نشأت على دعائمها الفرق الاسلامية وغيرها من المذاهب والنحل فى أصول الدين وفلسفته ٠

وهى التى كانت منبعا لدراسات لغوية وأدبية ، قامت على قواعدها فنون من الادب والنقد البلاغى الى جانب تدوين متن اللغة وتعقيدها وروايتها مما حفظ تراث العربية نقيا عن الشوائب منذ عصرها الجاهلى الى أن كانت شغل الحياة فى عاصمتى العربية البصرة والكوفة دهرا طويلا ، ثم تخطت الى عدوة الاندلس فى ألوان اضفت عليها تلك الرياض الاسلامية المفقودة كثيرا من طبيعتها الفينانة المخصبة .

وعلى الجملة كانت هذه الدراسات مصدرا لتلك الموسوعات الفقهية التشريعيه التى لا حصر لها على ما تنبئنا به فهارس المكتبات العظمى فى العواصم الاسلامية الكبرى فى الشرق والغرب أينما وصل نداء الاسلام واستقرت قدم المسلمين ٠

كما كانت هذه الدراسات مصدرا للموسوعات الفلسفية والعلوم العقلية ودراسة اللغة والادب التى ماج بها العصر العباسى واستبحرت فى عصر الخليفة المأمون ومن بعده من الخلفاء والامراء وملوك الشرق وحكامه فى هذا العصر وعصور الدول المنفصلة عن الحكم العباسى ٠

وعصر أبى حامد ـ الى جانب ذلك ـ عصر تلقى مع هذه الدراسات الاسلامية الواسعة لقاح حضارات الامم ونتائج العقول ، وثمرات الافكار ، وسبحات الاخيلة واشراقات القلوب ماثلة فى كلمات الزهاد واشعاع الارواح فى اشارات الصوفية ، ونزعات الالحاد فى فلتات الزندقة ، وهدى الايمان ونسك التعبد ، وحيرة الشك وسفسطة المنطق ، ومنطق الفلسفة فى الجدل حول أصول الدين ، وتفلسف العقيدة فى عبارات المتكلمين ، الى جوانب اخرى زخرت بها الحياة الاجتماعية فى محافل الخلافة والملك وأندية المترفين ٠

كل ذلك تلقاه القرن الخامس الهجرى ـ عصر أبى حامد الغزالى ـ ممتزجا بالحضارة الاسلامية ـ التى انضجها العقل الاسلامى بخصائصه الثرية فى ظل القرآن والسنة وفنونها امتزاجا جعل منها حياة لها سيماها الخاصة ، فلا هى شرقية ، ولا هى غربية ولا هى فارسية أو رومانية ولا هى هندية أو صينية ولا هى عربية ، ولا هى اسلامية خالصة ، ولا هى غير اسلامية ، وانما هى حياة انسانية تمثل معارف الانسان وفلسفته فى الحياة بخيره وشره وغرائزه وعقله ؛ وروحه ونفسه وضلاله وهداه فى سائر أطواره العقلية والاجتماعية أكمل تمثيل ٠

هذه الحياة وان هي توحدت في صورتها الانســانية العامة لكنها احتفظت في ظل الدراسات الاسلامية التي لم ينقطع عنها مددهـــا ، بخصائص عناصرها الجزئية التي تؤلفها بمجموعها كوحدة لها حقيقتها المميزة لوجودها ، فهي اشبه بالانســان في صورته البشرية التي لم تسلب عن اعضائه التي تؤلف حقيقته البشرية خصائصها الجزئية فاليد في الانسان لها مفهومها ومكانها من جسم الانسان ولها عملها فيه ،والعين والاذن والقلب ، وكل عضو من سائر اعضائه له معناه ومفهومه ومكانه وعمله ، لا يطغى عليه غيره ، ولا يأخذ معنى ومفهوم عضو سواه ، ولكنها جميعها تؤلف مجتمعة جسم الانسان — الذي يكتسب باجتماعها على نظامها الالهي ووضعها الطبيعي مفهومه ومعناه ويؤدي عمله في الحياة انسانا لا عضوا في انسان .

فالمد الحضاري في ظل الاسلام جمع اشتات الامم والشعوب بتراثها الفكري وعقائدها وفلسفاتها واخلاقها وعاداتها وعلومها ومعارفهـــا وثقافاتها والوان تربيتها وضروب سلوكها في الحياة .

ففلسفة الاغريق ، وتنسك الهنود وحكمة الصين ، وزندقة الفرس وطقوسها الملكية واشتراع الرومان ونظمهم الاقطاعية وسائر ما عـــرف على وجه الارض من نتج العقل الانساني وإثباته وجموحه وضلاله وهدايته وجميع ما عرف من نظم اجتماعية ، كلها آوت في ظل الحضارة الاسلامية الى ربوة ذات قرار ومعين من طبيعة الاسلام ، فهضمها الاسلام وتمثلهـــا في داخل حقيقته الفكرية والاجتماعية صورة انسانية موحدة الاطار وان كانت متعددة الالوان مختلفة الرسوم .

وقد كان من اثر ذلك الامتزاج الحضاري ان اصبح المجتمع الاسلامي على ترامي اطرافه • واتساع رقعته ميدانا لتفاعل تلك العناصر الفكـرية والاجتماعية ، ذلك التفاعل الذي تولدت منه التيارات العقلية والروحية المختلفة التي قامت في ظلها الفرق المختلفة وفي احضان هذه الفرق نشأ الجدل ونهد علم الكلام للدفاع عن العقيدة الاسلامية بسلاح خصومهـــا الذين هاجموها بالجدل المنطقي تارة ، وبالسفسطة الجدلية تارات .

ومن باب هذا الجدل الكلامي دخلت الفلسفة بقضاياها في دراسة عوالم ما وراء الطبيعة ، ووضعت الالهيات والروحانيات موضع التحليل المنطقي لتقاس بمقاييس الفروض العقلية .

ومن نافذة هذه الفلسفة في دراسة النفس الانســـانية والبحث في حقيقتها واحوالها وصلتها بالجسم وبعد مفارقته تفلسف التصوف الى ان اصبح بهذا التفلسف النظري المعقد فنا عقليا له قواعده واصـــوله ومصطلحاته التي مزجته في اكثر احواله ولا سيما عند الطبقات المتأخرة

من اربابه بالفلسفة النظرية فى فهم حقيقة العقل والروح والنفس وهـذه الحقائق هى التى يدندن حولها هذا التصوف المتفلسف • ولم يكـن ارباب التصوف العملى من متقدمى الطائفة يعنون كثيرا بهذه المباحـث النظرية •

الغزالى فى عصره

فى هذا الخضم الفكرى المتلاطم بامواج التيارات العاصفة نهد ابو حامد محمد بن محمد الغزالى عبقريا نسيج وحده فكان أمة فى اهاب رجل ، ورجلا فى عقل أمة ، وعلى مهاد هذه الحياة الموارة بأعاصير الفكر نشأ ابو حامدفريدا فىبابه عصاميا بين أقرانه وأترابه بين أبوين فقيرين، تلقفته الصـوفية وهو فى ريعان طفولته ، ومهد صـباه فأرضعته بلبانها وحضنته فألقمته ثديها ، وتفتح احساسه بالحياة بين احضانها وشم عبير الوجود فى أريجها •

كان ابوه رجلا فقيرا صالحا ، شديد الحب للعلم والعلماء ، يخدمهم ويجد فى الاحسان اليهم والنفقة عليهم بما تملكه يده ويطوف على المتفقهة ويجـالسهم وكان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله ان يرزقه ابنا ويجعله فقيها ويحضر مجالس الوعظ فاذا طاب وقته بكى وسأل الله ان يرزقه ابنا واعظا •

وكان يعمل بيديه فى غزل الصوف ليأكل من كسبه وعرق جبينه ، تحريا للحلال الطيب فى رزقه وطعمة اولاده فاستجاب الله دعاءه وقبل منه ابتهاله ، فأعطاه ولدين احمد ومحمدا ، وأتم عليه فيهما نعمته ،فكانا من أفذاذ العلماء ، كان أحمـد ، وهو أكبر الاخوين ، واعظا تلين الصم الصخور عند سماع وعظه ، وترعد فرائض القساة لقوارع زجره وتهتز قلوب الحاضرين فى مجالس تذكيره ، يبكى العيون ، ويستولى على الافئدة والقلوب يوقظ سكارى الاحلام،ويهدى الحيارى من الانام ، ويرد الشاردين الى حظيرة الايمان ويذكر الناسى ، وينبه الوسنان •

ومن لطيف ما يروى فى تأثير وعظه ما يتصل بأخيه الامام ابى حامد اتصالا غير مجرى حياته • روى الزبيدى فى شرح الاحياء ان سبب سياحة الامام أبى حامد الغزالى وزهده فى الدنيا وزخرفها انه كان يوما يعـظ الناس فدخل عليه أخوه أحمد فأنشده •

أخذت بأعضادهـم اذ ونوا : وخلفك الجهـد اذ اسرعـوا
وأصـبحت تهدى ولا تهتدى : وتسمع وعظا ولا تسـمع
فيا حجـر الشحذ حتى متى : تسن الحـديد ولا تقطع

فمنذ ذلك قطع أبو حامد علائقه بالدنيا وساح فى الارض على قدم الفقراء الناسكين تاركا وراءه جاها عريضا وصيتا داويا ومكانا بين افذاذ العلماء مرموقا وهكذا تحققت فى اكبر الولدين احدى امنيتى والده الرجل الصالح ٠

أما أصغر الاخوين محمد الغزالى ، فكان عالم الدنيا فى عصره ، وامام الائمة فى زمنه ومدره الامة في وقته ٠ وحجة الاسلام فى سائر امصاره ولسان الملة فى محافلها بز العلماء فلم يتعلقوا بغبار جواده ، ملأ الدنيا دويا باسمه ، وشغل الحياة بمؤلفاته وكتبه وآرائه وأفكاره فكان ملء سمعها وبصرها ، ولا يزال يشغلها بحثا وراء شخصيته والكشف عن عبقريته وكان فوق ما تخيل ابوه فى امنيته ولو رآه فى جلالة قدره لفتن به فتنة المعجب بما هو فوق عجبه وأمنيته ٠

نشأة الغزالى

كان والد ابى حامد الغزالى رحمه الله قد اصطفى من بين من جالسهم من زهاد العلماء والمتعبدين رجلا صوفيا استصفاه لنفسه واستخلصه لصداقته ووده فلما أحس دنو اجله اوصى الى هذا الصديق الفقير الناسك بابنيه احمد ومحمد ، وهما أعز ماخلف وراءه فى الدنيا ، وقال له وصيته : (ان لى لتأسفا على تعلم الخط واشتهى استدراك مافاتنى فى ولدى هذين فعلمهما ولا عليك ان تنفذ فى ذلك جميع ما أخلفه لهما) فلما مات رحمه الله اقبل الصوفى على تعليمهما الى أن فنى ذلك النذر اليسير الذى كان خلفه لهما ابوهما وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما ، فقال لهما : (اعلما انى قد انفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجا الى مدرسة فانكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما) ففعلا ذلك وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما ٠

ونحن نقف مع هذا النص التاريخى الذى يجمع عليه مؤرخو الغزالى والذى كان يحكيه أبو حامد نفسه بعد ان استحكم امره وعلا قدره ،ويعقب عليه بقوله :

(طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون الا لله) (١) متساءلين

أولا — فى أية سن ترك والد ابى حامد ولديه وذهب الى رحمة الله بعد ان أوصى بهما الى صديقه الصوفى ؟

---

(١) طبقات ابن السبكى

ثانيا : من هو ذلك الصوفى ؟ وما مكانته بين أهل العلم وشيوخ الصوفية فى عصره ؟ وهل كان يتولى تعليم ولدى صديقه بشخصه ، فيدرس لهما فنون العلم ويؤدبهما بالعمل ،ويأخذهما بشىء من أدب السلوك الذى كان يؤخذ به المريدون فى طريق القوم ؟ واذا صح هذا فماذا كان يدرس لهما من فنون العلم ومعارف عصره ؟ والى أى حد كانت استجابتهما لوصيهما فى منهجه الذى عاش عليه فى حياته الصوفية ؟

أو أن هذا الشيخ الوصى كان حظه معهما مجرد الاشراف على تعلمهما بالرعاية والانفاق عليهما من مالهما الذى خلفه لهما والدهما لينفق منه فى سبيل تعليمهما كما يشرف – الآباء على تعليم أبنائهم بتسليمهم الى معاهد العلم ومدارسه ؟

هذا لون من الغموض الذى يحيط بأولى خطوات أبى حامد الغزالى نحو الحياة الفكرية التى كونت شخصيته العلمية . وعلى دعائمها قامت عبقريته ، ومن آفاقها ذاع صيته واشتهرت امامته .

والكشف عن هذا الغموض له أهميته العظمى فى التمهيد الى التعرف على حياته وتتبع خطاه فى سيرته التى نحاول ان نجد فيها مفتاح عظمته .

بيد أن المراجع التى بين أيدينا من مؤلفات الغزالى وفى بعضها يتحدث عن جوانب من سيرته العلمية ، وحياته الفكرية ، والاطوار التى مربها ، لم تسعفنا بشىء من الاجابة عن هذا التساؤل .

وكذلك مؤرخو الغزالى ومترجمو حياته والمعنيون بتفاصيل سيرته من القدامى والمحدثين واخصهم ابن السبكى فى الطبقات الكبرى التى أطال فيها رشاء القول من حياة الغزالى بما يصلح ان يكون كتابا جامعا مستقلا لو جرد من الطبقات . لم يعرج أحد منهم على الحديث عن هذه الخطوة الهامة من نشأة الغزالى التى كان منها اتجاهه الفكرى ، وبها بدأت حياته العلمية التى انتهت به اماما من شيوخ الصوفية وذوى مقاماتهم العالية .

واذا كنا لا نستطيع الاجابة الكاشفة عن شخصية ذلك الصوفى الوصى على ابى حامد وأخيه لنعرف من هو ؟ وما مكانته بين أهل العلم فى عصره ، وما مقامه بين شيوخ الصوفية من اصحاب وقته ، اذ لا سبيل الى هذه المعرفة الا نقل التاريخ ومنطقه وليس عندنا منه شىء فى هذا . فاننا نستطيع ان نستخبر مظان الحوادث وقرائن الاحوال لتقرب منا معرفة المواطن الاخرى من التساؤل عسى ان يكون فى ذلك مايفتح للبحث باب الحقيقة على ايدى محبى الغزالى من الباحثين .

والذي تدل عليه المظان والقرائن ان والد ابي حامد ترك ولديه ماضيا الى رحمة الله وهما في سن الطفولية الشادية المدركة لاوائل طلب العلم على نهج التربية الاسلامية في تلك العصور ، وهي مرحلة كانت تبدأ أول ما تبدأ بحفظ القرآن الكريم وتجويده ومعرفة احكام قراءته وترتيله مع شيء من فقه العبادات الاوليه في الطهارة والصلاة وشرائطها وأوقاتها وذلك يبدأ في الاعم الاغلب قريبا من السنة السادسة وهذا ما نرجحه في السن التي تركهما ابوهما فيها أو قريبا منها اعتمادا على ما يفهم من مضمون الوصية المتقدمة ، كما نرجح ان وصيهما الصوفي كان رجل صدق ، وكان عالما من أهل التربية الروحية والرياضة النفسية بصفة عامة تعويلا على ان أباهما كان يريد بوصيته الى صديقه الصوفي أن يعوضه الله تعالى في ولديه ما فاته في نفسه من عدم التعلم ، فيجعل من ذريته علماء على نهج ما رآه ، واحبه في سيرة العلماء الذين عاشرهم وخدمهم وواساهم بنفسه وماله ، فلابد أن يكون اختياره وصي ولديه من طراز من تشتاق نفسه أن يكون والداه على نهجه وطريقته بقدر ماتصوره ادراكه واتسع له عقله ويتأيد ترجيحنا بظاهر قول ابن السبكي في الطبقات عند حكايته وصية والد أبي حامد الى صديقه الصوفي بتعليم ولديه وتربيتهما : (فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما) وأظهر من عبارة ابن السبكي في تأييد ترجيحنا عبارة شارح الاحياء الامام مرتضى الزبيدي فانه قال : (فأقام بهما وعلمهما الخط وأدبهما) فتعليم الخط والتأديب انما يكونان غالبا في نحو هذه السن ، ولا يقوم بهما الا من كان وافيا بحقهما على نهج ماكان معروفا في ذلك الزمان من مفهوم التعليم والتأديب .

ومن هنا نرجح ان وصيهما الصوفي هو الذي تولى بنفسه تحفيظهما القرآن الكريم وتولى تعليمهما ما يتناسب مع سنهما من مبادىء الفقه التعبدي في الطهارة والصلاة بالقدر المأمور به في هذه السن كما جاء في الحديث الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم : (مروا أولادكم بالصلاة لسبع) ، وهي سن التمييز ، ويراها الغزالي طورا جديدا(١) من أطوار وجود الانسان الذي يدرك به امورا زائدة على عالم المحسوسات .

واذا صح هذا فلا بد ان يكون هذا الشيخ الصوفي قد سلك في تربيتهما عمليا مسلك الادب النفسي والتهذيب الروحي عملا وتأسيسا بحاله وذوقه حتى تأهلا لطلب العلم في مدارسه بين طلابه المنقطعين له .

ونرجح ان يكون ذلك التأهل للاستقلال بطلب العلم في مدارسه الخاصة كان في حوالي العاشرة من عمر أبي حامد ، ويزيد عليه اخوه احمد بما يكون بين الاخوة المتقاربين في الزمن ، وهذه السن هي السن

---

(١) المنقذ من الضلال

التى يبدأ فيها تفتح الادراك المؤهل لطلب العلم استقلالا وفيهــا يبدأ تعرف الحياة مع القرناء وفى معاشرة الناس ولذلك اعتبرها الشارع طورا آخر بعد طور مجرد الامر بالصلاة ، فأكد فيها طلب العبادة ممن يعقــل القربة فى آدائها فى الحديث السابق على ما ورد فيه (واضربوهم عليهــا لعشر) .

ويؤيد ما ذهبنا اليه قول الشيخ الصوفى الصدوق لوصييه بعــد نفاد ما خلفه لهما والدهما عنده من مال (واصلح ما أرى لكما أن تلجآ الى مدرسة فانكما من طلبة العلم) فاعتباره لهما من طلبة العلم واطمئنانه عليهما فى لجؤهما الى مدرسة من مدارس طلب العلم ، يعيشان فيها عيشة طلبة العلم دليل واضح على انهما كانا فى ذلك الحين قد بلغا سنا تؤهلهما لحياة طلبة العلم المستقلة ، ولا تكون هذه السن فى الغالب فيما دون العاشرة لاصغرهما .

ويخلص للبحث من هذا ان أبا حامد الغزالى واخاه أحمد تركهمــا والدهما فى رعاية وصيه وصديقه الشيخ الصوفى وهما فى ريعـــان الطفولية المدركة وانهما مكثا فى احضان هذه الرعاية سنوات حفظا فيها القرآن الكريم وتلقيا مبادىء الفقه التعبدى مع العمل والتأسى بسلوك شيخهما الصوفى الذى كان ينزل منهما فى الرعاية والتأديب منزلة الوالد البر الشفيق .

ويظهر من اخلاص هذا الشيخ الصوفى وصراحته وتلمس مايصلح لوصييه فى طلب العلم بعد اذ عجز عن القيام به انه كان رجل صدق ، لانه أحس عبء الوصية ، وقدر خطر المهمة الملقاة على عاتقه ، وكان قــد نفد النزر اليسير الذى تركه لهما والدهما من المال فى امانته وتعذر عليه القيام بقوتهما ، وخشى عليهما التخلف عن تحقيق وصية والدهمـــا ، فصارحهما وارشدهما الى ما رآه اصلح لهما فى حياتهما ، واستمعا الى نصيحته ولجأ الى مدرسة فى بلدهما من مدارس العلم التى كان يأوى الطلاب اليها منقطعين ، للدرس ، يقيمون فى خلواتها ويرزقون فيهــا برواتب يعيشون بها وكانت هذه المدارس منتشرة فى كثير من البـــلاد الاسلامية منذ القرن الرابع الهجرى .

* * *

هذا جانب من حياة أبى حامد الغزالى فى طفولته مجهول المعـــالم ، ولو لم يكن ابو حامد عبقريا ممتازا فى تاريخ الفكر الاسلامى لما كان فى جهالة طفوليته غرابة ، ولكن امتياز الغزالى الذى بهر الحياة فى عصره والاعصر التى توالت بعده هو الذى جعل لهذا الجانب من حياته اهمية خاصة تبعث الاسف لدى كل باحث فى سيرته لينظم حلقاته فى سلك

متواتر ، تستند فيه كل حلقة طارئة الى حلقة اخرى سابقه ، لان حياة العباقرة تتواكب خطواتها فى نمط من التماسك يحمل فى طياته ارهاصات لما يأتى بعدها من اعجاز :

بيد ان هذه الارهاصات قد تغمرها الحوادث الاجتماعية المتلاحقة فى البيئة التى نهد فيها العبقرى فلا يلتفت اليها التاريخ ، فتبقى مجهولة ابدا أو الى حين .

وعصر أبى حامد المفعم بالاحداث الفكرية والاجتماعية الملىء بالائمة من العلماء والزهاد والفقهاء والفلاسفة والمتكلمين وزعماء الفرق واهـــل الجدل والادباء والشعراء ، وسائر قادة الفكر ، وبيئته العامة فى هـــذا العصر ، وفى قطره وبلده وبيئته الخاصة فى اسرته الفقيرة المكـــــدودة المنزوية فى ذرى الصلاح وتواضع التقوى المتصوفة بمجرد المحبة للصوفية وخدمتهم وتتبع آثارهم فى آداب سلوكهم كل ذلك مما يضعف صـــوت الارهاصات ولا يساعد على التفات التاريخ الى تدوين مالمع فى طفولية ابى حامد واضرابه ممن نهدوا فى هذا الجو من الحياة .

ولهذا لا يبدأ التاريخ الحديث الجاد عن هؤلاء العباقرة ــ عند ما ترغمه عبقرياتهم الداوية على ان يفرد لهم فى كتاب الزمن صفحات ــ الا منذ يبدأون صلاتهم بالمجتمع الفكرى فى معاهده الدراسية « الرسمية » أو يبدأون فى عمل خالد يغير وجهه الحياة ويوجه التاريخ، وللانبياء والرسل فى ذلك المثل الاعلى .)

ونحن نرجح أن هذه المرحلة بدأت فى حياة أبى حامد الغزالى عندما تحدث اليه والى أخيه وصيهما الشيخ الصوفى فى صراحة واخلاص عند نفاد ما تركه لهما أبوهما عنده من مال قليـــل وأنه رجل فقير ، يعيش زاهدا على قدم التوكل ، لا مال له فيواسيهما منــه ، وأن أصلح ما يراه لهما ان يلجآ الى مدرسة لانهما من طلبة العلم .

ونرجح كذلك ان هـــذه المدرسة التى لجآ اليها باشارة شيخهما الصوفى هى المدرسة الرسمية الاولى التى تتلمذ فيها أبو حامد فى دراسة الفقه الشافعى ببلدة طوس على أول استاذ «رسمى» عرف فى تاريخه ، وهو الامام احمد بن محمد الراذكانى وان لم يكن فيما بين ايدينـــا من المراجع ما يدل على أن « الراذكانى » كانت له مدرسة أو كان أستاذا فى مدرسة وانما المعروف أنه كان من فقهاء الشافعية فى بلدة طـوس ، بلد أبى حامد الغزالى ولهذا يقول ابن السبكى فى الطبقات : « قرأ ابو حامد فى صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد « الراذكانى » تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين ويقول فى ترجمة الراذكانى : وهذا الراذكانى أحد أشياخ الغزالى فى الفقه .

وقراءة ابى حامد طرفا من الفقه فى صباه ببلده معقول ان تكون بعد مرحلة الطفولية التى مرت فى حضانة معلمه الاول الشيخ الصوفى ، وهذا هو الوقت الذى لجأ فيه ابوحامد مع أخيه الى مدرسة يحصل لهما منها قوت يعينهما على وقتهما استجابة لنصيحة شيخهما .

فالراذكانى اذا لم يكن له مدرسه خاصة يدرس بها فلا أقل من أنه كان فى بلده مرجعا لفقه الشافعيه يدرسه فى مدرسة ، أية مدرسة أو يدرسه فى بيته أو مسجد بلده على عادة علماء عصره لتلاميذ مدرسة كانت معلومة لطلاب العلم ، يلجأون اليها ارتفاق بما هو موظف لاساتذتها وطلابها من من خيرات يحصل لهم منها مايعينهم على دراسة العلم وطلبه وتكون هى التى لجأ أبوحامد وأخوه اليها وكانت السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما .

الغزالى فى مهاد الصوفية

استقبلت الصوفية أباحامد الغزالى فى مهد حياته بين احضان أبوين فقيرين صالحين يعيشان من كسب اليد وعرق الجبين ، تحريا للحلال الطيب من رزق القوت ، وكان ابوه محبا للعلم والعلماء ، عاشقا للصوفية والزهاد يواسيهم بما يستطيع الحصول عليه من قليل الكسب بغزل الصوف ويقوم بنفسه على خدمتهم ، ويلوذ بهم ، ويلازم مجالسهم ويسمع وعظهم يتأثر بحالهم ويتمنى على الله ان يرزقه ولدا يكون من العلماء السالكين طريقهم

ولما لم تسعفه الحياة بفسحة العمر بعد رزقه ولديه أحمد ومحمد أوصى بهما الى صديقه وصفيه الشيخ الصوفى الذى كلفهما منذ ان شباعن المهد ، ودرجا فى مدارج الطفولية حتى أوصلهما الى طلب العلم فى معاهده الدراسيه .

فأبو حامد الغزالى تلقى أول ما تلقى آداب الصوفية وسلوكهم علما وعملا بقدر ما سمحت به طفولته الغضة المتفتحة كالزهر فى مطالع الربيع على يد رجل لم يعرف عنه الا انه صوفى كان صديقا لابيه ، ثم وصيا عليه وعلى أخيه ، وقد صدق الرجل معهما فى وصايته . ولا بد ان يكون قد صدق معهما فى صوفيته، فلقنهما آداب السلوك وعلمهما اداب الطريق فى سن تكون مرآة النفس باقية فيها على جلاء الفطرة مصقولة لاقطة .

ومرايا النفوس الانسانية لاتتزاحم فيها الصور على كثرتها ولا يحجب بعضها بعضا ، فلكل صورة انطبعت فى أديمها مكان يحفظها بخصائصها التى استقرت عليها ، وقد تبرزها المرآه عند استدعائها اذا توافرت اسباب ظهورها .

فالسمت الصوفى والسلوك الصوفى ، والادب النفسى على النهج

الصوفى كان اول صورة انطبعت فى مرآة النفس والفكر عند أبى حامد الغزالى ، وهى أول نقطة بدأ منها خط سيره فى الحياة الروحية والفكرية التى كانت مجالا لعبقرية حجة الاسلام .

ومن غرائب اسرار القدر الالهى فى حياة أبى حامد رحمه الله تعالى ان ماكان أول نقطة بدأ بها خط سيره فى الحياة كان بعنصره الاصيل آخر نقطة انتهى عندها خط سيره فى هذه الحياة ، أعنى أن ابا حامد بدأ – عن غير قصد منه – صوفيا ، وانتهى بقصد ونية وبصيرة صوفيا ، والفرق بين الصورتين . صورة البداية . وصورة النهاية هو الفرق بين صورتين انطبعتا فى لوحى مرآتين اختلفتا سعة وضيقا ، وصغرا وعظما ولكن خصائص الصورة وملامحها الاصيلة واحدة فى الحالين .

فهل كان لآخر حياة أبى حامد الصوفية التى انتهى اليها بعد تبصر وبحث وتبحر فى العلوم والمعارف ارتباط بأول حياته التى بدأ بها صوفيا بأدب التربية وعوامل البيئة دون اختيار أوتفكير – ؟ وهل كان لاول حياة أبى حامد الصوفية تأثير شعورى فى اخر حياته الصوفية المفكرة على معنى أن الصورة التى كانت منطبعة فى مراة نفسه دون اختيار منه أوتمهيد لذلك الانطباع الذى كا نتيجة لمجرد ملاقاة المرآة النفسية للصورة الصوفية المصغرة هى التى ظهرت وكان لابد لها أن تظهر عندما توافرت لها أسباب الظهور فى اطار مرائى أعظم اتساعا وأجود صقلا وأصفى اديما بما لايقاس به اطار الصورة الاولى الا كما يقاس العقل الانسانى عند الطفل فى مهد رضاعه بالعقل الانسانى عند العبقرى فى ذروة تفكيره وذكائه ؟ .

فلو لم تبدأ حياة أبى حامد الغزالى رحمه الله بصورة من الصوفية الساذجة ، ترسبت فى خفايا نفسه لما انتهت الى هذه الصوفية المبصرة التى تملكت عليه تفكيره وهو فى ذروة عظمته وأخذت بمجامع شعوره وحسه

ليس هذا حتما من الامر فى نظر المنطق العقلى ، لكن العلم – والعلم أعم من منطق العقل – لاينكره ، لان العلم يؤيد أثر الترسبات النفسية فى ظواهر الوجود النفسى ؟ وظهورها عند استدعائها فى الوقت المناسب أكثر مما يؤيد أثر الترسبات العقلية فى ظواهر الوجود العقلى ، لان العقل يعتمد فى مدركاته على منافذ الحس ، وهى متغيرة لاثبات لها فى خزانة العقل ، وأما النفس الانسانية ، أعنى الروح الحية المدركة بذاتها فهى لا تعتمد فى ادراك الحقائق وتصورها على أمر خارج عنها لانها تدركها بذاتها وطبيعتها ، فادراكاتها ثابتة لا تتغير ، بيد أنها قد تحجب فلا تظهر ، فيتوهم أنها ذهبت ، وقد يدخل بطريق الأشتباه فى المدركات لا فى نفس الادراك .

هذا التوافق بين بدايه أبى حامد الغزالى ونهايته هو — فى نظرنا — أول خطوة فى الاتجاه الصحيح الى الاهتداء لمعرفة مفتاح شخصيته وهو اتجاه مغفول عنه لم نعلم أحدا من الباحثين فى حياة الغزالى وقف عنده وقفة بحث وتحليل ، تبين معالم الطريق من أوله لدراسة حياة هذا الامام العبقرى مع أنه أحرى جوانب الغزالى بالنظر لانه جانب انفرد به من بين سائر العلماء والمفكرين الافذاذ ومفاتيح شخصيات قادة الفكر انما تكون فى الجوانب التى انفردوا بها ولم يشركهم فيها غيرهم من العباقرة .

قد يبدو هذا الجانب ضئيلا فى حياة الغزالى أو حياة غيره لو كان له فيه شبيه لا يستحق نصب الدراسة ومتاعب البحث ، ولكن كم من أمر صغير فى مظهره كان فى حقيقته مصدرا لعظائم الامور ؟؟

وكأن الباحثين فى حيـاة أبى حـامد الغزالى — على كثرتهم وتعدد مشاربهم — شغلوا بأبى حامد العيلم المفكر البـاحث النظـار ، الحجة الفيلسوف المتكلم ، الجدلى ، الفقيه الاصولى الصـوفى بعلمه وعقله ، انعليم العقول فى تصوفه ، عن أبى حامد الصوفى بتربيته وبدايته .

ومن العجيب أن أبا حامد نفسه رضى الله عنه أرخ لحياته فأطنب وفصل ولكنه فى هذا التاريخ شغل بعلمه وعقله عن صـوفيته فى بداية تربيته ونشأته ، فبقيت تلك المرحلة مجهولة المعالم فى حياة أبى حامد رحمه الله تعالى .

والامر ما فى غيب الاقدار عاد أبو حامد — مختارا أو غير مختـار — فى نهايته من حياته الداوية الى مـاكان من تقدير الله له فى بدايته الهادئة

شخصية الغزالى التاريخية

وشخصية أبى حامد التاريخية عجيبه من عجائب الابداع الالهى فى نوع الانسان ذلك لانها شخصية يراها الناس بادى الرأى أوضح ماتكون شخصية لشـهوتها التى طبقت الآفاق ، ولاثارها العلمية التى مـلأت الارجاء ، ولما امتاز به صاحبها من حدة الذكاء الخارق ، ومن صبر عـلى مكايدة العقول واقتحـام لجج العلوم والمعـارف والافكار فى كافـة الوانهابنهم لايشبع ، وجراة على اقتحام المضائق الفكرية العصيبة ومغامرة المزالق الفلسفية فى غير تهيب ولا وجل مع قوة عارضـة فى الجـدول والمحاجة لم تهزم قط ، حتى اتفقت كلمة مؤرخيه ، انه كان أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه فلم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه .

يصفه شيخه المؤسس لشخصيته العلمية الامام أبو المعالى عبد

الملك الجوينى امام الحرمين ، وكان أستاذ عصره بلا مدافع بانه « بحر مغدق » ويروى « بحر مغرق » وكلا المعنيين صحيح واقع فى حياة ابى حامد الغزالى ٠

وكان امام الحرمين ينبجح به ويفخر بتلمذته له الى أن توج القدر الالهى الحكيم ذلك كله بهذا التنسك الصوفى المتبتل فى محاريب العبودية المشرقة الذى بلغ فيه ابو حامد رضى الله عنه مرتبة من الكشف الروحانى عزيزة المنال ـ كما يقول ـ لا يصح البوح بها ان لم يكن من اهلها وهو يكتفى فى الاخبار عنها لمن لم يذقها بانشاد بيت من الشعر الرمزى يمثل موقف أبى حامد من نفسه فى بهجة اشراق روحه وتفتح قلبه لحقائق الوجود الغيبية ، وموقفه من حياة الناس ودنياهم التى أطرحها وأعرض عنها بعد أن جمعت له زخارفها فى قبضة يده راضيا أكمل الرضا عن صوفيته التى تسامت به فوق مظاهر العلو المادى الدنيوى الذى كان يغمر عصره وكاد يغمره فى عصره ٠

فكان ما كان مما لست أذكره : فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر ٠

هذه الشخصية الواضحة بخصائصها وصفاتها فى بادىء الرأى هى نفسها أغمض ماتكون شخصية فى تحليلها وتعرف حقيقتها ووضعها فى مكانها الصحيح من الحياة ٠

ومن ثم لا نجد التاريخ يصنع لابى حامد الغزالى صورة واحدة مستوية المعالم ولكنه يصوره فى صور كثيرة تتجاذبها الآراء والمذاهب ٠

فشخصيته كانت ولا تزال معترك الاقلام ، وميدانا لاسلات الالسن منذ دوى اسمه فى الآفاق ، وسارت مؤلفاته مع الشمس حتى بلغت من دنيا العلم والعقل ما قصرت دونه مصنفات العلماء والحكماء ٠

فهو فى نظر محبيه المعجبين بعقله وعلمه ، العبقرى النظار الذى حطم العقول بقوة عقله ٠ والعالم الاصولى الفقيه المتكلم الذى أرسى قواعد العقائد على دعائم المنطق البرهانى وحماها بسياج الحجة الباهرة والجدل الذى يقتحم على الخصوم قلاعهم اقتحام مغالبة ليهدم بقوة حجته ما أقاموا من حصون الشبه والاباطيل والفيلسوف الذى خنعت له كبرياء الفلاسفة ودانت لعقله عصيات الفلسفة فظهر على أسرارها وكشف عن خبيئاتها وبهرج زيفها ، وحقق من عويص قضاياها ما عجز عنه فحولها وجهسا بذتها والصوفى الروحانى والحكيم النفسانى الذى تجلت بنور قلبه ، واشراق روحه أسرار الشريعة وحكم بتشريعها فأبان عنها فى احيائه بما لم يجر معه فى شوطه جواد من الائمة والحكماء مما دفع كثيرا من محبيه من أعلام العلماء الى المبالغة والاغراق فى وصف هذا الكتاب الفريد فى

بابه . روى الشيخ عبد القادر العيدروس صاحب التعريف بالاحياء عن الامام النووى ـ وهو من هو امامة وفضلا ، وعلما وزهدا وجهارة بالحق ـ انه قال : (كاد الاحياء يكون قرآنا) لو كان قائل هذه الكلمه غير الامام النووى أو لو كان الامام النووى على غير ما يعرفه التاريخ من جلالة القدر فى الاسلام لقلنا انها كلمة شاعرية اكتست ثوبا فضفاضا من مبالغات الشعراء ولكن اذا صحت فانها تدخل فى باب المحبة وباب المحبة واسع الغفران فيغتفر فى المدائح للمحبين مالا يغتفر لسواهم ، وهى أضخم عنوان على مكانة الغزالى فى تاريخ الفكر الاسلامى .

ونحن وان كنا نجل كتاب « احياء علوم الدين » ونعرف له قدره ولا سيما من جهه ما تضمنه من مباحث نفسية وغوص على أسرار الشريعة ببيان ما اشتملت عليه أحكامها من حكم وما فيه من اشراق روحى ، ونورانية مشرقة فى مباحثه لكننا لا نقر هذه المبالغات مهما كان مصدرها

ولذلك كان الحافظ أبو الفضل العراقى مقاربا اذ يقول فى تخريجه لاحاديث الاحياء (انه من أجل كتب الاسلام فى معرفة الحلال والحرام جمع فيه بين ظواهر الاحكام ونزع الى سرائر دقت عن الافهام ، ولم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع الى الساحل بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن) ومن المبالغات اللطيفة المقبولة في وصف هذا الكتاب النفيس ما ذكره التاج السبكى فى الطبقات من قول بعض المحققين :

(لو لم يكن للناس فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والاثر غيره لكفى) فهذا كلام جميل لانه يذكر خصائص كتاب الاحياء التى امتاز بها على كثير من المؤلفات الاسلامية ، وهى جمعه بين النقل والنظر والفكر والاثر ، ذلك مما امتاز به الغزالى فى كثير من مؤلفاته مما يدل على أنه كان بطبعه فقيه النفس غواصا على المعانى الدقيقة التى تتصل بدخائل النفس البشرية .

ومما يدخل فى هذا اللون فى مدح كتاب الاحياء قول صاحب دائرة المعارف الوجدية من كتاب عنصرنا (هو أفخم أثر اسلامى بعد كتاب الله وسنة رسوله ، وهو أبدع ما وضعه المؤلفون فى الاسلام لم يوضع قبله ولا بعده مثله وهو آية من آيات التأليف وغاية من الغايات التى تقصر عنها الهمم)

ومن أحسن ذلك وأعدله قول شيخنا شيخ الاسلام وشيخ الازهر الاستاذ الشيخ محمد الخضر بن الحسين التونسى رضى الله عنه (فلا عجب أن يبلغ كتاب الاحياء فى الغوص على أسرار الشريعة والبحث عن

دقائق علم الاخلاق وأحوال النفس غاية بعيدة فكتاب الاحياء من صنع عقل نشأ فى قوة ورسخ فى علوم الشريعة وخاص فى العلوم العقلية فوقف على كبيرها وصغيرها وفرق بين سليمها ومعيبها وخلص بعد هذا من كدور الهوى وظلمات الحرص على عرض الدنيا .

واذا وجد العلماء فى كتاب الاحياء مآخذ معدودة فانه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى كتاب الاحياء فضلا وسمو منزلة ان تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العدوان يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره) .

هذا كلام مشرق بنور العدل والفضل ، نضجت به قريحة رباها الايمان وزينها العلم وحكمها العقل (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) .

والصوفية قضهم بقضيضهم متوافقون على اجلال أبى حامد رضى الله عنه ووضعه فى مرتبة القطبانية تارة والغوثية أخرى والصديقية مرة فيما هو من أعلا المراقب والمقامات عندهم .

وهم يروون فى شأنه عن أكابر شيوخهم روايات وغرائب ، لا سبيل الى عرضها بالتفصيل فى بحث يقصد الى تصوير شخصية الغزالى المفكر الذى خاض بحار العلوم والمعارف والفنون الفلسفية فى جرأة وجسارة وقوة تعتمد على الاخلاص والبحث العميق ثم خرج منها بعد أن تملى بأصولها وفروعها وأفاض على عصره من ينابيعها ــ زاهدا فى عريض جاهها وواسع صيتها .

والصوفية ــ كغيرهم ــ فى شأن الغزالى ــ منهم المقتصد فى كلمه عنه الذى ينظر اليه والى آثاره فيرى فيه العالم المحقق الذى أضفى على التصوف من عقله وعمله ما قرب منهجه للناس وحببه اليهم وما أكسبه كثيرا من النظر العقلى المبدد لكثير من الشبه الى جوانب خاصة من الاشراق الروحى والصفاء القلبى النابع من فطرة الغزالى حتى جعله فنا من المعارف الكسبية التى تؤخذ من لباب الشريعة والتى يمكن أن ينالها بثمراتها كل من جاهد نفسه وصفى باطنه من غوائل الكدورات المادية ، وطهرها من رذائل الاخلاق وتسامى بها عن الكون الى دار الغرور وهذا رد للتصوف فى الاسلام الى حقيقته الشرعية كما كان عليه متقدمو المتصوفة فى الاسلام ، فأبو زيد البسطامى وهو أحد سادات رجال الرسالة القشيرية التى هى أجل ما ألف فى التصوف يقول (لو نظرتم الى الرجل يطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الامر والنهى وحفظ الحدود والقيام بالشريعة) .

وأبو القاسم الجنيد امامهم المقتدى به يقول (الطرق كلها مسدودة على الخلق الا طريق اقتفاء آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلمنا هذا بالكتاب والسنة) .

وأبو حمزة البغدادى امام المتوكلين والزهاد ـ عنـــدهم ـ يقول (لا دليل على الطريق الى الله تعالى الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وسائر أحواله) .

ويقول أبو سعيد الخراز كل باطن يخالف ظاهرا فهـــو باطل . والغزالى رضى الله عنه يذكر هذا فى كتبه ولا سيما كتاب « الاحيـــاء » ويكثر من هذه النقول عن أكابر الصوفية ومتقدميهم ليحقق نظريته فى تآخى العلم والعقل مع التصوف فى الاسلام وليرفع الحجب التى ضربها بعض متفلسفى الصوفية حول التصوف حتى جعلوه ألغـــازا وطلاسم يترجمون عنهـــا بعبارات جامحة عن محجة العقل لا تخضـــع لمقاييس الشريعة وموازين العلم .

ومن هؤلاء المقتصدين فى عباراتهم عن الامام الغزالى الاستاذ المحقق العارف الامام أبو العباس المرسى أكبر تلاميذ أبى الحسن الشاذلى : وقد سئل عن الغزالى فقال : انى أشهد له بالصديقية العظمى .

فأين هذا الكلام الرصـــين الخارج من خزائن التحقيق من قول بعضهم كما نقله اليافعى « لو كان نبى بعد النبى لكان الغزالى » فما هذا يا أهل الله ؟ والذين يلوذون فى الدفاع عن هذا الكلام بكلمة « لو » انما يباعدون بها فى أقصى جهدهم بين صاحب هذا الكلام وبين الخروج من نطاق الايمان ، ولو لم يكن فى هذه العبارة المغرقة سوى انها تضع الغزالى رحمه الله موضعا لا يرضاه الغزالى العالم الفقيه لنفسه لكفى فى الحـــكم عليها أنها لا توزن بميزان العقل الشرعى .

ومما يقع بين بين من روايات الاكابر ما رواه ابن الســـبكى فى الطبقات عن الشيخ العارف امام الصوفية فى عصره أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم وقد باهى موسى وعيسى عليهما السلام بالامام الغزالى وقال لهما أفى أمتكما مثل هذا ؟ قالا : لا ، ومخرج هذا ونحوه فى نظرنا ـ اجلال الحب وتعظيم المحبين .

وهذا اللون كثير جدا فى ترجمة أبى حامد الغزالى مبثوث فى كتب الطبقات وتاريخ الرجال يتناوله مريدوه وعاشقو مذهبه مـــن المتصوفة والمتكلمين ، ونحن لم نورد بعضه الا على سبيل الشاهد لما أحتف بسيرة الغزالى من أقاويل .

وبحسبك ما تقرأ من كلامهم من طبقات ابن السبكى ، والمنـــاوى والسمعانى وابن عساكر وابن النجار والحنبلى ، والفتح البغـــدادى وعبد الغافر الفارسى والشـــعرانى وغيرهم ممن لا يحصـــون كثرة فأبو حامد عند محبيه تصور شخصيته كلمة تلميذه محمد بن يحى التى يقول فيها « الغزالى لا يعرف فضله الا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال فى عقله» كما يصورها تعقيب التاج السبكى على هذه الكلمة فيقول «يعجبنى هذا الكلام فان الذى يجب ان يطلع على منزلة من هو أعلى منه فى العلم يحتاج الى العقل والفهم ، ولما كان علم الغزالى فى الغاية القصوى احتاج من يريد الاطلاع على مقداره أن يكون هو تام العقل وأقول : لا بد مـــع تمام العقل من مداناة مرتبته فى العلم لمرتبه الآخر ، وحينئذ فلا يعرف أحد جاء بعد الغزالى قدر الغزالى ولا مقـدار علم الغـــزالى اذ لم يجىء بعده مثله) .

وهذا الكلام لايعجبنا من التاج السبكى ، لانه اذا أصـــح فى بعض مقدماته فهو غير سليم فى انتاجه لان قوله وحينئذ فلا يعرف احد جاء بعد الغزالى قدر الغزالى ولا مقدار علم الغزالى اذ لم يجىء بعده مثله فاق كل مبالغه وجاوز الدقة فى التعبير الى الاغراق والتوسع الفضفاض وخـــرج الى التحجير على فضل الله اذ ليس فى الدنيا بشر يجوز أن يقال فى حقه انه لم يجىء بعده مثله سوى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وســـلم وكلام ابن السبكى حكم على الامة الاسلامية بالعقم وهى أمة متصلة المدد لا ينقطع عنها النبوغ ولاينضب فى معينها نحير العبقرية وغفر الله للمحبين جمحات الاقلام .

أما متنقصو ابى حامد رحمه الله تعالى فاكثرهم من الفقهاء والمحدثين فكما حمل الحب المحبين على المبالغة والاغراق فى مدح ابى حامد والثناء علـــيه حمل الشانئين الشنآن على المبالغة فى التنقيص والعيب ، وقد كان أبو حامد نفسه شديدا على الفقهاء والمحدثين يتناولهم بقلمه ولاذع عباراته ويتنقص دينهم واخلاصهم ويعيب عليهم كثرة تفريعهم لمسائل الفقه وكثرة روايه الحديث وتكالبهم على مظاهر الدنيا ومناصبها وصيتها ، فدفع ذلك فريقا منهم الى أن يقسو عليه ويتنقصه ويتتـــبع كلامه ، يتصيد منه العثرات حتى رماه بعضهم بأنه كاد ينسلخ من الدين ، وبأنه طوى بصوفيته بساط الشريعه كما يقول ابو الفرج ابن الجوزى فى كتابه «نقد العلم والعلـماء» المشهور باسم « تلبيس إبليس » وكما صرح به ابن القيم فى تعقيبه على ما ورده أبو حامد من حكايات وأحوال لبعض مشيخة وأحوال الصـــوفية وأكابرهم ونكتفى بذكر هذا المثل شاهدا على ذلك فقد ذكر ابو حامد انـــه

ضاع لبعض الصوفية ولد صغير فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ؟ فقال اعتراضى عليه أشد علي من ذهاب ولدى .

قال ابن القيم . لقد طال تعجبى من أبى حامد هذا كيف يحكى هذه الحكايات على وجه الاستحسان لها والرضا عن أصحابها ويعد الدعاء والسؤال لله تعالى اعتراضا ؟ لقد طوى بساط الشريعه طيا اذ الدعاء مشروع بالاجماع ، وعلى هذا الغرار جرى ابن القيم وأكثر جدا من هذا اللون فى النقد

أما مشيخة الامام أبو العباس بن تيمية ، فقد نقد الغزالى نقدا علميا وانصفه فى نقده وكان أقوم قيلا واحسن تأويلا لكلام الغزالى وقد انتهى معه بحسن الظن فيه وقال انه عكف فى آخر حياته على قراءة البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة .

وعبارته فى كتابه (جواب أهل الايمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن .

قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه ، ويجعل أخبار الانبياء علم القصص ، ويقول : ان الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل ، بل انما فيه دفع البدع ببيان تناقضها ويجعل أهله من جنس خفراء الحجيج ويجعل علم الفقه ليس غايته الا مصلحة الدنيا ، وهذا مما نازعه فيه اكثر الناس ، وتكلموا فيه . كما تكلموا على ما ذكره فى هذا الكتاب (جواهر القرآن) وغيره من كتبه من معانى الفلسفة وجعل ذلك هو باطن القرآن وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك فان هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول أمور عظيمة كما تكلموا على ما ذكره فى النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها ... ثم قال بعد أن بين أن قول الغزالى فى قل هو الله أحد أحسن من قول كثير من الناس فيها وأنه اقرب الى الصواب : واما جعله علم الفقه خارجا عن الصراط المستقيم والعمل الصالح وجعل علم الادلة والحجج خارجا عن الايمان والمعرفة بالله واليوم الآخر فهذا مردود عند جماهير السلف والخلف ، وابو حامد انما ذكر هذا لانه يقول انه انما يعرف معانى ذلك بطريق التصفية فقط لا بطريق الخبر النبوى ، ولا بطريق النظر الاستدلالى فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل وهذا مما انكره عليه الناس وصنفوا كتبا فى رد ذلك كما فعل جماعات العلماء ولكن عذر أبى حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق فى ذلك ولم يعلم طرقا عقلية غير ذلك فنفى ان يعلم بطريق النظر فيه .

واما الطريق الخيرية النبوية فلم يكن له خبرة بما صح من الفاظ الرسول وبطريق دلالة الفاظه على مقاصده ، وظن بما شارك به بعض أهل الكلام والفلسفة ان الرسول لم يبين مراده بالفاظه ، فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلي والسمعي وظن ان المطلوب يحصل بطريق التصفية والعمل فسلك ذلك فلم يحصل له المقصود ايضا فرجع فى آخر عمره الى قراءة البخارى ومسلم ·

وقد تتبع المنكرون على ابى حامد تآليفه بالنقد واحصوا عليه كلمات موهمة مشتبهة وتعلقوا بها عليه وقد انتهض أبو حامد نفسه للاجابة عن كثير من اعتراضات المعترضين ونقد الناقدين ، وتصدى تلاميذه ومريدوه للاجابة عنها بما يدفعها عنه أو يدفع ما تحتمله من ايهام ، وأملى ابو حامد فى اجابته عن ذلك كتيبا سماه جلال الدين السيوطى فى الجزء التاسع عشر من تذكرته «الانتصار لما فى الاحياء من الاسرار» وسماه بعض العلماء « الاملاء فى اشكالات الاحياء » وسماه آخرون « الاجوبة المسكتة عن الاسئلة المبهتة » وهو كتاب واحد وقد جاء فى مقدمته : (سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراتبها وقرب لك مقامات الولاية تحل معانيها فى بعض ما وقع فى الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه وأظهرت التحزن لما نماش يه شركاء الطعام وأمثال الانعام وجماع العوام سفهاء الاحلام وذعار أهل الاسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته وافتوا بمجرد الهوى باطراحه ومنابذته ونسبوا مملية الى ضلال واضلال ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة واختلال ، فالى الله ، انصرافهم ومآبهم وعليه فى العرض الاكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ··· الخ وهذه الاسماء الثلاثة اسم لكتاب واحد وقد قصدنا بهذا التنبيه لمن عسى أن يقع نظره على فهرست مؤلفات الغزالى فيظنها كتبا متعددة وهى اسماء لمسمى واحد ، ونظن ان الغزالى سماه الاملاء فى اشكالات الاحياء وهى تسمية معهودة عند المتقدمين مأخوذة من طريقة تأليفهم · والغزالى نفسه يسمى كثيرا من كتبه بالاملاء وقد أطلق فى هذا الكتيب نفسه على أشهر كتبه وهو كتاب الاحياء مع اتساعه وضخامته الاملاء الملقب بالاحياء كما نظن ان التسميتين الاخريين من وضع تلاميذه ومريديه ·

وكان اظهر من نقد الغزالى وأشدهم عبارة فى حقه الامامان ابو عبد الله المازرى الفقيه المالكى المغربى وابو بكر الطرطوشى وقد ساق ابن السبكى فى الطبقات كلامهما ورد عليه بما رآه ، ونحن نقبس مما ذكره ابن السبكى ما نرى انه يدخل فى بحثنا ويتسق مع رأينا ·

قال الامام أبو عبد الله المازرى المالكى · مجيبا لمن سأله عن حال

كتاب أحياء علوم الدين ومصنفه ، هذا الرجل ـ يعني الغزالى ، وان لم أكن قرأت كتابه فقد رأيت تلامذته وأصحابه فكل منهم يحكى لى نوعا من حاله وطريقته فاتلوح من مذهبه وسيرته ما قام لى مقام العيان • فأنا اقتصر على ذكر حاذ الرجل وحال كتابه • فان كتابه متردد بين هــذه والفلاسفه والمتصوفة واصحاب الاشــارات فأن كتابه متردد بين هــذه الطرائق لا يعدوها وهو أعرف بالفقه منه بأصوله ، وأما على الكلام الذى هو أصول الدين فانه صنف فيه أيضا وليس هو بالمستبحر فيها ولقــد فطنت لعدم استبحاره وذلك أنه قرأ الفلسفة قبل استبحاره فى فن اصول الدين فاكسبته قراءة الفلسفة جرأة على المعانى وتســهيلا للهجوم عـلى الحقائق لان الفلاسفة تمر مع خواطرها ، وليس لها حكم شرعى ترعاه ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها •

وقد أطال التاج ابن السبكى فى الرد على المازرى وجعل محور رده تعصب المازرى لمذهبه فى اصول الدين والعقيدة وهو أشعرى ، وفى الفقه وهو مالكى والغزالى أمام متحرر وهو ان كان يأخذ بمذهب الاشعرى فى اصول الدين والعقيدة لكنه (وصل من التحقيق وسعة الدائرة فى العلــم الى المبلغ الذى يعرف كل منصف بأنه ما انتهى اليه أحــد بعده وربــما خالف ابا الحسن الاشعرى فى مسائل من علم الكلام ، والاشاعرة وخاصة علماء المغاربة منهم يستصعبون هذا الصنع ولا يرون مخالفة الاشعرى فى كثير لا قليل وكذلك ربما ضعف الغزالى مذهب مالك فى بعض المسائل كما صنع فى المصالح المرسلة) •

ثم أخذ ابن السبكى فى تزييف كلام المازرى تفصيلا متتبعا جزئياته بما لا يخلو من التحامل والعصبية المذهبية •

والحق ان كلام المازرى فى الغزالى كان يكفى فى رده انه كلام مــن سمع ولم يرفهو باعترافه لم يقرأ كتب الغزالى ولكنه رأى تلامذته وأصحابه وسمع منهم أنواعا من حالة وطريقته تلوح بها من مذهبه وسيرته ماقام له مقام العيان ، ولهذا كان أمثل ما اشتمل عليه رد التاج السبكى قوله : ان ما ادعاه المازرى من انه عرف مذهبه بحيث قام له مقام العيان هو كلام عجيب ، فانا لا نستجيز ان نحكم على عقيدة أحد بهذا الحكم ، فان ذلــك لايطلع عليه ألا الله ، ولن تنتهى اليه القوانين والاخبار أبدا قلنا :وخاصة اذا كان مصدر ذلك مجرد السماع ــ قال ابن السبكى : وقد وقفنا نحــن على غالب كلام الغزالى وتأملنا كتب أصحابه الذين شاهدوه وتناقلوا أخباره وهم أعرف به من المازرى ، ثم لم تنته الى اكثر من غلبة الظن بأنه رجل أشعرى المعتقد ، خاض فى كلام الصوفية •

وهذا نهج فى نقد افكار الرجال لا يرتضيه المنهج ونهـــج فى وزن الرجال لا يرجع فى ميزان العدل وما كان ينبغى للامام المازرى ان يحكـم على مثل الغزالى بهذه الاحكام القاسية بمجرد سماع مايحكيه عن أحواله تلامذته وأصحابه ، ثم نتساءل من هم أولئك التلامذة والاصحاب الذين سمع منهم الامام المازرى ما تلوح به من مذهب الغزالى وسيرته ما قام له مقام العيان ؟ أهم من المغاربة أم مـن المشارقة ومحنة كتب الغزالى بـين المغاربة مشهورة واصحابه الذين حكوا للمازرى حاله وسيرته ؟ هـل كان لهذه المحنة أثر عليهم ؟ أو كان لهذه المحنة أثر على تصور المازرى للغزالى ووكتبه وأفكاره من خلال سجوفها ؟

والامام المازرى كان من المكانة العلمية والذكاء العبقرى والتحصيل العلمى مما جعل ابن السبكى يقول عنه انه كان زكتازكيا أزكى المغاربـة قريحة واحدهم ذهنا بحيث اجترأ على شرح البرهان لامام الحرمين وهو لغز الأمه الذى لا يحوم نحو حماه ولا يدندن حول مغزاه الا غواص عـلى المعانى ثاقب الذهن مبرز فى العلم .

وكانت كتب الغزالى . خصوصا الاحياء منتشرة فى العالم الاسلامى متعالمة لعامة الناس وخاصتهم لو أرادها الامام المازرى لينظر فيها تحقيقا لما سمعه لكانت بين يديه ، ولكن هكذا جرت الاقدار بـين الرجلين والله تعالى يجعلهما ممن قال فيهم فى محكم كتابه ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) .

وأما الامام أبو بكر الطرطوشى فقد جرى فى نقده للغزالى على نهج الفقهاء والمحدثين الذين ينفرون من طرائق المتكلمين واهل النظر العـــقلى كما ينفرون من مسلك الصوفية وهذان هما طريقة الغزالى فى تفكيره وسلوكه لكن الطرطوشى كان انصف للغزالى من المازرى ، وكلامه جـدير بالنظر لانه اجتمع به وباحثه وعرف فضله وقدره العلمى ومكانته الفكرية

روى ابن السبكى فى الطبقات ان الطرطوشى ذكر فى رسالته الى ابن مظفر : (فأما ما ذكرت من امر الغزالى فرأيت الرجل وكلمته ،فرأيته رجلا من أهل العلم قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العـــقل والفهـــم وممارسة العلوم طول زمانه ثم بداله الانصراف عن طريق العلماء ودخـل فى غمار العمـــــال ، ثم تصوف فهجر العلوم وأهلهـــا ودخل فى علوم الخواطر وارباب القلوب ووساوس الشـــيطان ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ولقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الاحياء عمد يتكلم فى علوم الاحوال ومرامز الصوفية وكان غير انيس بها ولا خبير بمعرفتها فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات) وقد رد ابن السبكى على الطرطوشى ردا متحاملا لم ينصفه

فيه وهو من اعلام العلماء وصالحى الامة ، وهو قد انصف الغزالى ولم يعب عليه الا ما عابه عليه كثير من الفقهاء والمحدثين من تركه طريقة الفقة وهو علم الشريعة مع استبحاره فى علومها الى طريقه المتصوفه التى لاتقوم فى نظر المتشرعين الا على المكاشفات التى لا تؤمن عواقبها ولا يمكن التحرز من مزالقها وهذا ما عناه الطرطوشى بقوله فى الغزالى فهجر العلوم وأهلها ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان .

وبين هؤلاء وهؤلاء من المحبين والشانئين فريق نظر الى أبي حامد رحمه الله نظرة الى امام من قادة الفكر فى الاسلام خاض بحار العلوم والمعارف بحثا وراء الحقيقة فصورها بقلمه ولسانه كما تصورها بعقله واظهرها للناس فى كتبه ومؤلفاته ومجالس املائه ومدارساته كما رآها ببصيرته .

ومن هذا الفريق من استشعر فى نفسه اجلال ابى حامد رحمه الله فاستعظم انكار المنكرين ، ونهض مشمرا يدفع نقد الناقدين ويرد اعتراض المعترضين فى لون من الحماسة التى قد تغضى على العثرات وقد تدفع الى التحمل فى تخريج ما عسى ان يكون هناك من زلات .

ويمثل هذا الفريق فيلسوف الصوفية وامام متأخريهم ابن عربى الحاتمى والمشيخة عبد الكريم الجبلى ، والشعرانى ، والسمهودى ؛ والسيوطى والتاج السبكى .

ومنهم من رأى أن أبا حامد وان كان فى جلالة قدره بالمحل المرموق فى حلبات الفكر وميادين العلم ، لكنه انسان يجوز عليه ما يجوز على غيره من العلماء والائمة من الخطأ مع اعتقاد حسن النية فى عقيدته وبذله الجهد مخلصا فى سبيل الوصول الى الحقيقة التى ينشدها عن طريق البحث والحق عندهم أعظم من أقدار الرجال وأبو حامد نفسه ينادى بهذا المبدأ فى التحرر الفكرى فهو يقول فى كتاب (معيار العلم) وكتاب (المنقذ من الضلال » و « ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال . لا الرجال بالحق والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله » .

ويمثل هؤلاء الناقدين لابى حامد مع الاعتراف بفضله تلميذه القاضى أبو بكر بن العربى فقد نقد شيخه أبا حامد فى قولته المشهورة « ليس فى الامكان أبدع مما كان » مع تعظيمه له فقال : (قال شيخنا أبو حامد الغزالى قولا عظيما انتقده عليه أهل العراق وهو بشهادة الله موضع انتقاد ، قال : ليس فى القدرة أبدع من هذا العالم فى الاتقان والحكمة ولو كان فى القدرة أبدع منه وأدخره لكان ذلك منافيا للجود) ثم قال

ابن العربى : ونحن وان كنا قطرة فى بحره فانا لا نرد عليه الا بقوله .. فسبحان من أكمل لشيخنا هذا فواضل الخلائق ثم صرف به عن هـــدى الواضحة فى االطرائق .

والامام ابن العربى كان شديد التعظيم لشيخــه أبى حامد عارفا لقدره بصيرا برسوخ قدمه فى العلوم والمعارف ، يقول فى كتابه « قانون التأويل » ورد علينا (أى فى بغداد) دانشمند (يعنى الغزالى) فنزل فى رباط أبى سعد بازاء المدرسة النظامية . معرضا عن الدنيا ، مقبلا على الله تعالى ؛ فمشينا اليه وعرضنا أمنيتنا عليه وقلت له : أنت ضالتنا التى كنا ننشد ؛ وامامنا الذى به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة) (١) .

وقال فى كتاب (العواصم) عند تعرضه للحديث عن الفلاسفة ورد مذاهبهم الفلسفية فانتدب للرد عليهم بلغتهم ومكافحتهم بأسلحتهم والنقض عليهم بأدلتهم أبو حامد الغزالى رحمه الله ، فأجاد فيما أفاد ؛ وأبدع فى ذلك كما اراه الله واراد وبلغ من فضيحتهم المراد فأفسد قولهم وذبحهم بمداهم فكان من جيد ما أتاه ومن احسن ما رواه ورآه وأفرد عليهم فيما يختصون به دون مشاركة أهل البدع كتابا سماه (تهافت الفلاسفة . ظهرت فيه منته ؛ ووضحت فى درج المعارف مرتبته .

وقد تكررت هذه الكلمة التى أخذت على الغزالى فى عديد من مؤلفاته بعبارات متقاربة الالفاظ موحدة المعنى فقد جاءت فى كتاب « التوكل » عند الحديث عما يثمر « التوكل » فانه قال : (كل ما خلقه الله من السموات والارض أن امعنوا فيه البصر وطولوا فيه النظر لما رأوا فيه من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسمه الله بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وفرح ، وحزن وعجز ، وقدرة وايمان ، وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل لا جور فيه ، وحق صرف لاظلم فيه ، وليس فى الامكان أصلا اتم منه ولا احسن ولا أكمل ولو كان . وأدخره مع القـــدرة ولم يفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عاجزا والعجز ينافى الالهية .

وقال أيضا فى الاجوبة المسكنة مصورا لاعتراض المعترض عليه فى هذه الكلمة « وما معنى بأن ليس فى الامكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليــــه . كان ذلك بخلا يناقض الجود وعجزا يناقض القدرة الألهية .

وتكرار هذه العبارة فى أكثر من كتاب من مؤلفات الغزالى ، ونقد

(١) الاستاذ الامام محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر فى مقدمة تحدى طبقات الأحياء

تلميذه ابن العربى لها ، وادخال الغزالى نفسه لها فى اشكالات «الاحياء» وتكلفه الاجابة عنها يرد على من زعموا ـ دفاعا عن ابى حامد ـ انكار صدور مثل هذا القول منه وانه مدسوس عليه محتجين بأن مؤدى هذه العبارة لا يتمشى الا على أصول الفلاسفة والمعتزلة وأبو حامد رحمه الله قد رد على هؤلاء وهؤلاء أصولهم فى الجود والفيض والصلاح والاصلح ومؤلفاته طافحة بهذه الردود ، ففى كتابى « تهافت الفلاسفة » و «مقاصد الفلاسفة» رد على مذاهب الفلاسفة ، وفى كتب « الاحياء » و « الاقتصاد فى الاعتقاد » و « القسطاس المستقيم » و « المستصفى » رد على المعتزلة ونقض أصولهم فى الحسن والقبح والصلاح والاصلح ، فلا يعقل أن يتناقض مع نفسه ويقول هذه العبارة التى لا تتفق مع رده على الطائفتين

الغزالى بين السياسة والمنافسة

وقد كان علماء المغرب من الاندلسيين والافريقيين من أشد ناقدى الغزالى والمنكرين عليه فقد حرقوا كتبه ، وأغروا بها العامة وأفتوا الملوك والامراء وذوى السلطان فى أقطارهم وأغروهم بوجوب حرقها واعدامها ، وتولى كبر ذلك القاضى أبو القاسم بن محمدين قاضى الدولة التاشفينيةفى عهد أميرها «على بن يوسف بن تاشفين وكان هذا الامير كأبيه من قبله لا يخرج فى سياسته وأحكامه عن رأى الفقهاء الذين كانوا أهل الشورى فى الدولة فالدولة لا تقطع أمرا دون رأيهم وفتاواهم ، وكان هؤلاء الفقهاء على مذهب السلف فى الاصول والعقائد وعلى مذهب مالك بن أنس فى الفروع واحكام الحوادث فلما صلت الى أيديهم كتب أبى حامد وخاصة كتاب الاحياء رأوا فيها مخالفة لما ألفوه وجروا عليه فأقاموا النكير عليها وعلى مؤلفها وعدوه مبتدعا وعدوا كتبه • بدعة فى الاسلام ، وكتبوا بذلك خطوطهم ورفعوها الى أمير المسلمين ، يطلبون اليه اعلان تحريم قراءة هذه الكتب ووجوب أعدامها ، ومعاقبة من يحتفظ بها لما فيها من بدع المتكلمين وضلالات الفلاسفة ولما تحويه من تنقيص العلماء والفقهاء وشتمهم وتنفير العامة من متابعتهم والحط من شأنهم وشأن علومهم ، وهذا ـ فى واقع الحقيقة هو السبب الاهم فى تحريك هذه الفتنة فقد كان أبو حامد شديد النكير على الفقهاء والقضاة •

وعارض هذا الاجماع فقيه فأمر أبو الفضل بن محمد الحاوىالمشهور بابن النحوى فى جمع قليل من تلاميذه ومحبيه الذين أبوا ان يشاركوا أولئك الفقهاء فى هذه الثورة على الغزالى ومؤلفاته ، وكان ابن النحوى محبا للغزالى وكتبه كثير النظر فيها انيسا بها وجعل من كتاب الاحياء

كتابه المفضل فى القراءة والاقراء . يقول أبو الحسن على بن حرزهم لما وصل الى فاس كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء وان يحلف الناس بالايمان المغلظة ان كتاب الاحياء ليس عندهم ذهبت الى أبى الفضل أستفتيه فى تلك الايمان فافتانى بأنها لاتلزم وكانت الى جنبه فقال لى : هذه الاسفار من كتاب الاحياء ووددت انى لم أنظر فى عمرى سواها (١) .

وتروى حكاية عن أبى الحسن بن حرزهم هذا يرويها ابن السبكى فى الطبقات وغيره وتتضمن ان ابن حرزهم كان من أشد المنكرين على كتاب الاحياء وكان يقول انه بدعة مخالف للسنة وانه هو الذى طلب الى السلطان جمع نسخ الاحياء واجتمع الفقهاء ونظروا فيه ثم اجمعوا على احراقه وكان ذلك يوم الخميس ، فلما امسى ابن حرزهم من ليلة الجمعة راى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما جلوسا والامام ابو حامد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم وكتاب الاحياء بيده فقال يارسول الله هذا خصمى مشيرا الى ابن حرزهم ثم ناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الاحياء وقال : يارسول الله أنظر فيه فان كان بدعة مخالفا لسنتك كما زعم تبت الى الله تعالى وان كان شيئا تستحسنه حصل لى من بركتك فانصفنى من خصمى .

وتقول الرواية فى تكميل هذه القصة ان النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه استحسنوه وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بتجريد ابن حرزهم وضربه حد المفترى فضرب خمسة أسواط ثم شفع فيه أبو بكر رضى الله عنه وقال : يا رسول الله انما حصل ذلك منه اجتهادا فى سنتك وتعظيما فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما أصبح ابن حرزهم وجد اثر السياط على ظهره وهو يتألم يقول ابن السبكى : وصار ينظر فى كتاب الاحياء ويعظمه ويبجله وهذه حكاية صحيحة حكاها شيخنا الكبير ولى الله تعالى أبو العباس المرسى عن شيخه الشيخ الكبير ولى الله أبى الحسن الشاذلى .

هذه قصة قد يكون الخيال لعب دورا فى نسجها من خيوط الحب لهذا الامام نذكرها من قبيل سابقتها فى الدلالة على تعظيم الغزالى ومكانته فى نظر محبيه ، فهل كان ابن حرزهم منكرا على الغزالى فى أول أمره تأثرا بمألوف فقهاء بلاده من التمسك بمذهب السلف من عدم تأويل النصوص والوقوف عند ظواهرها فى العقائد ثم عاد اليه بالتعظيم والقبول لمذهبه وآرائه بعد هذه الرؤيا اذا صحت الرواية بها ؟! وان الشيخ ابن حرزهم كان على منوال ابن النحوى فى معارضة القائمين ضد الغزالى وكان ...... فضله وفضل مذهبه وآرائه ، فأستأنس بابن النحوى يتقوى به فى جانب

---

(١) مقال الغزالى والمضرب للاستاذ محمد المنتصر الكتانى بمجلة منبر الاسلام

المعارضة كما تقول الرواية التاريخية السابقة ؟ ترجع هذا على رغم تصحيح ابن السبكى الرؤيا بالحكاية . ٤٦هـ

بيد أن معارضة ابن النحوى فى شجاعته لم تكن لتقوى على الوقوف فى وجه ثورة الفقهاء الذين استطاعوا أن يضموا اليهم عامة الناس واغمار طلبة العلم من تلاميذهم ـ الى جـانب ما كان للفقهـــاء من مكانة فى دولة المرابطين باعتبارهم أهل شوارها مما يشكل خطرا ثوريا على الدولة باسم الدين وهو أمر مرعب ، تخافه الدولة ولا تستطيع مقاومته ، لان الدين كان اذ ذاك هو الاساس الدستورى فى قيام الدولة ، ولحمايته من الالحاد والبدع والنزعات المنحرفة تحيا وتنهض وعلى قواعده يقوم بنيانها وتستقر دعائمها .

فلم يكن بد من أن يستجيب أمير المسلمين (على بن يوســـف بن تاشفين) لصيحة الفقهاء فأمر بالبحث عن كتاب الاحياء وغيره من مؤلفات الغزالى وشدد على الناس فى التفتيش والتنقيب وكتب الى سائر البلدان فى مملكته وأغلظ على العامة والخاصة بالايمان المغلظة حتى جمـع من نسخ الاحياء الشيء الكثير من بلاد الاندلس والمغرب الاقصى ووضع ما جمع مـن الاندلسيين فى صحن جامع قرطبة وما جمع من بلاد مراكش فى صحن مسجدها الجامع وهكذا فى سائر الاقطار المغربية واشعلت فيها النيران هنا وهناك .

اثر ذلك أثرا عظيما فى نفس ابى حامد الغزالى لما بلغه وهو فى بغداد، فتأسف وحزن حزنا أدمى قلبه ، فكان يدعو على دولة التاشفيين بأن يمزق الله ملكهم كما مزقوا كتابه الذى يعتز به اعتزازا لم يعتزه بكتاب مثله فى كثرة مؤلفاته وغزارتها وجلالة قدرها لان الاحياء كان يحتوى عـلى عناصر الثورة الكامنة فى نفس الغزالى على عصره الذى قاسى فيه من المتاعب عـلى ايدى زعماء الفرق وأرباب النحل وتقلبات السياسة فى دول الاسلام مـع قعود الفقهاء وأئمة الدين عن الدفاع واظهار الحق والرد على الملاحدة والمبتدعة وجريهم وراء المناصب التى تقربهم من أهل الدنيا .

روى ابن القطان فى كتابه (نظام الجمان فيما سلف من أخبار الزمان) عن عبد الله بن عبد الرحمن شيخ مسن من سكان فاس . قال كنت ببغداد بمدرسة أبى حامد الغزالى ، فجاء رجل كث اللحية على رأسه « كرزى » صوف فدخل المدرسة وحياها بركعتين ثم أقبل على الشيخ أبى حامد فسلم عليه فقال الغزالى ممن الرجل ؟

قال الرجل : من أهل المغرب الاقصى .

قال الغزالى : دخلت قرطبة ؟

قال الرجل : نعـم .

قال الغزالى : مافعل فقهاؤهـا

قال الرجل : بخـير ·

قال الغزالى : هل بلغهم الاحياء ·

قال الرجل : نعـم ·

قال الغزالى : فما فعلوا فيه ؟

فصمت الرجل ولم يجب فعزم عليه الغزالى ليقولن ما طرأ ، فاخبره باحراقه وقص عليه ما جرى فى شأنه ، فتغير وجه الغزالى ، ومد يده بالدعاء والطلبة يؤمنون فقال اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما حرقوه

قال راوى هذا الحديث : فقام محمد بن تومرت السوسى المصمودى وكان من أخصاء تلاميذ الغزالى ومريديه ، لازمه ثلاث سنين وأخذ عنه الاصول والعقائد ، وطريقته فى التربية والسلوك ، وقال : ايها الامام ادع الله ان يجعل ذلك على يدى فقال الغزالى : اخرج سيجعل الله ذلك على يدك ·

وتقول الرواية متوافقة مع واقع التاريخ فى الاحداث التى جرت بعد ذلك على دولة المرابطين ، ان الله تعالى قبل دعاء الغزالى رضى الله عنه وخرج محمد بن تومرت الذى لقب فيما بعد بالمهدى متوجها الى بلاده المغرب آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، متحملا فى سبيل دعوته أشد الايذاء ، صابرا محتسبا على قدر الزهد والورع ، لايبالى الدنيا اوقعت فى يده ام تحت قدمه ، قوالا بالحق غير هياب ؛ وكان قد طوف فى بلاد الاسلام طالبا للعلم داعيا الى الله ، وحج واشتد نكيره على الناس فى مكة ، فاخرجوه منها وذهب الى مصر ثم الى الاسكندرية فلم يطب له مقام فيهما ، فركب البحر الى الغرب ونزل بالمهدية فلم يقر له فيها قرار ورحل الى (بجايه) وهناك فى مجالس الوعظ والتدريس تعرف على صاحبه وشريكه فى تاسيس دولة الموحدين (عبد المؤمن بن على) الذى كان أول ملوكها فأعجب كل منهما بصـاحبه وكشف له عن خبيئة ذاته فتوافقـا على العمـل والتدبير فى ازالة دولة المرابطين « التاشفينية » ، وأظهر ابن تومرت مذهب الاشاعرة فى العقائد والرد على المبتدعة بجنس حججهم وعلى طريقتهم وأسلوبهم و تأويل نصوص المتشابه وآيات الصفات كما صنع شيخه واستاذه أبو حامد الغـزالى فى مؤلفاته ومجالس مناظراته ومحافل دروسه قال ابن ابى زرع (ان المهدى رحل الى الشرق فى طلب العلم ونبغ فى علم الاصول والاعتقادات وكان من جملة من لقى من العلماء الشيخ أبو حامد الغزالى ·

وقد كان أبو حامد رحمـه الله فى طليعـة علماء المشـارقة الذين افتوا (يوسف بن تاشفين) أمير المرابطين ووالد (على بن يوسف) الذى حرق

الاحياء فى عهده بوجوب خلع ملوك الطوائف الاندلسيين الذين استشرى الفساد على أيديهم وتخاذلوا أمام أعداء الاسـلام واتسعت الخـلافات بينهم واذلوا المسلمين وظلموا الخاصة والعامة وبغوا فى الارض بغير الحق ، ومزقوا دولة الاسلام العظمى فى هـذا الجـانب من أرض الله وتقاسموها دويلات هزيلة يحارب بعضهم بعضا والعدو متربص بهم ، يغرى فى صدورهم الأحقاد ويوقد نيران التحاسد والبغضاء بينهم ، حتى كان أحدهم لا يبالى أن يستعين باعداء الاسلام من طغاة الصليبيين على منافسيه من ضعفاء الملوك والامراء ، يقول العلامة ابن خلدون : (وأفتى يوسف بن تاشفين الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم وسارت بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالى والطرطوشى وغيرهما) .

فاستجاب (ابن تاشفين) للغزالى ومن وافقه من الاعلام ودخل الاندلس بجحافله وتجمع لحربه ومقاومته أولئك الملوك الضعاف واستنجدوا على قتاله بالصليبيين واليهود من أعداء الاسلام فهزمهم الله أمامه شر هزيمة واستعاد (ابن تاشفين) وحدة الدولة الاسلامية فى الاندلس والمغرب تحت لوائه :

وقد تجاوبت آفاق الاسلام بهذه الانتصارات الباهرة وذاعت انباؤها فى المشرق فاعتز لها العلماء والائمة وكان أشدهم فرحا بها واعجابا بأبطالها الامام أبو حامد الغزالى فالهمه الله أن يتخذ من هذه الانتصارات وسيلة لوحدة الامة الاسلامية فى المشرق والمغـرب تحت راية الخلافة فى بغـداد بعد أن مزقتها الاهواء الى مجموعة من الدويلات مشتتة هنا وهناك مما أطمع فيها أعداء الاسلام الواقفين له بالمرصاد ، يبغونه الغوائل ويقتصون من أطراف دوله وممالكه قطعة وراء قطعة حتى انحصر ملك الاسلام فى رقعة من الارض يحوطها الخطر من كل جانب .

فكر الغزالى ـ وقد بلغ فى دولة الخلافة الذروة بأمامته الفكرية وزعامته الروحية فى اتخاذ خطوة سياسية بارعة معتمدا على مكانته وعلى ما بلغه عن الثقات من عدالة ، « يوسف بن تاشفين » وأصالة رأيه ، واستقامة دينه وحبه للخير وشغفه بالجهاد فى سبيـل الله ووفرة قوة جيوشـه ونظامها وتشبعها بروح الفداء وبعدها عن تميع الحضارة فى دولته الناشئة ، وعلى ما أسداه الى (ابن تاشفين) من منه كبرى بتجميع القلوب حوله وتأييده بفتواه وفتوى العلماء فى ضم بلاد الاندلس الى مملكته التى رأى فيها (ابن تاشفين) وجنوده قوة حربية ساعدته على تحقيق انتصاراته العظيمة بما قذفته فى قلوب أعدائه من الخزلان والاضطراب وبما بعثته فى قلوب جنده من الاستبسال والبطولة .

لم يترك الغزالى الزمن يمر على الاحداث فيقلل من روعتها ويفل من حدتها ولكنه سابقها واخذ يعمل بسرعة فى السعى لدى دار الخلافة العباسية

فى عاصمة الدولة لتعترف بشرعية حكم « يوسف بن تاشفين » مؤسس « دولة المرابطين فى المغرب وكتب الى (ابن تاشفين) يبشره ويحضه على نشر العدل بين الرعية ويرغبه فى التمسك بفعل الخير ويخبره بمساعيه الحميده ويوحى اليه ليستكمل بحسن رأيه وحكيم سياسته مابدأه لاجله وأجل دولته التى تعمل على رفعة الاسلام ونصر المسلمين وطلب اليه أن يخطو الخطوات العملية السريعة التى تحقق الغاية النبيلة .

وكان (ابن تاشفين) لديانته واخلاصه وطموحه يتعطش الى أن تبارك الخلافة حكمه وتقر امارته وتؤيده فى فتوحاته وضم شمل المسلمين وجمع كلمتهم .

فلما بلغته كتب الغزالى وفهم مقاصده الشريفة أسرع الى تنفيد ما أشار به عليه الامام وأرسل الى بغداد بعثة للمثول بين يدى الخليفة وتقديم الشكر وشرح الحال فى بلاد الاندلس وبيان مقاصده (ابن تاشفين) التى ترمى الى توحيد كلمة المسلمين وانقاذ مسلمى الاندلس من ظلم حاكميهم ومن تعرضهم لغارات الفرنجـــة وهتك حرماتهم وسلب أموالهم وسفك دمائهم دون أن يجدوا فى ملوكهم وأمرائهم المستضعفين من يرد عنهم غاراتهم ويحمى حوذتهم

ورأى (ابن تاشفين) بثاقب نظره ونافذ بصيرته أن تكون بعثته الى الحضرة الخليفية من علماء الدين ذوى الآراء الناضجة فى سياسة الاسلام وأن يكون منهم من يمت بصلات القرب الروحى والود العلمى والنسب الفكرى الى الامام أبى حامد الغزالى صاحب الفكرة الذى أوحى بها اليه ، وأن يكون فى رجالها من أبناء الاندلس من يعرف حالها حق المعرفة .

اختار ابن تاشفين فى بعثته الفقية أبا محمد عبد الله المعافرى وابنـه الامام الحافظ أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى ، أحد الافذاذ من أحرار الفكر فى تاريخ الاسلام ، وكان أبو بكر هذا قد اجتمع بالغزالى وتتلمذ عليه وأخذ منه علما غزيرا فى رحلته الى الشام والى بغداد حيث لقيه فيهما ، حتى أصبح من خواص تلاميذه أثيرا عنده حظيا بعنايته وكان يجـل شيخه اجلالا عظيما ويقول له : (انت ضالتنا التى كنا ننشد وأمامنا الذى به نسترشد) .

وقد أدت هذه البعثة ما حملت من أمانة فى رسالتها أكمل اداء بفضـل تمهيدات الامام الغزالى وامداده بجاهه ومشورته ، وعادت الى (ابن تاشفين تحمل اليه الرضا الخليفى واقرار امارته وتبارك فتوحاته .

وبهذه القوة المعنوية وثبت جحافله الى عدوة الاندلس ، فرهبه ملوكها وامراؤها فبايعوه على المناصرة ، وضم شملهم اليه ؛ وجمع كلمتهم عليه ووجههم قوة مجتمعة مع قوة جيوشه الى جهاد اعداد الاسلام ورد غاراتهم

فرعبهم وقـــذف الله فى قلوبهم الوهن والرعب فاندحروا منهزمين هزيمة منكرة . ما كانت تقوم لهم بعدها قائمة لو ظلت قوة الاسلام مجتمعة . متضامة على عهد خلفاء (ابن تاشفين) كما كانت على عهده ، وفى ظـل امارته وسياستـه ولكن تغير الحـــال فى دولة المرابطـين بعد وفاة عميدها ومؤسسها (يوسف بن تاشفين) أوقف اندفاع هذه الانتصارات الباهرة بل قلبها الى هزائم أطمعت أعداء الاسلام فى بقايا مخلفات الدويلات الاسلامية الاسلاميه هناك .

ذلك أن خضوع ابنه وخليفته من بعده (على بن يوسف بن تاشفين) الى اغمار الفقهاء من أهل شواره وأصغائه لارائهم فى كتب الغزالى وتاثر الامام لذلك أشد التاثر ودعائه على دولته وتحريضه تلميذه العبامى الطموح (محمد بن تومرت) الملقب فيما بعد بالمهدى على القيـــــام بتقويض دعائم دولة المرابطين ، كل ذلك قلب الاوضاع وغير وجه الاحداث .

وقد نجح (ابن تومرت) نجاحا مدهشا فى القضاء على دولة (المرابطين واقامة دولة (الموحدين) على انقـاضهـا بمعاونة صديقه وصفيه (ابـن عبد المؤمن أول أمراء (الموحدين) التى قامت على مبادىء الغزالى وأفكاره .

هكذا لعب الامام الغزالى فى السياسة دورا من أخطـر ما عرف فى تاريخ الانقلابات السياسيه . فهـــو قد أمد بنفوذه دولة ناشئة هى دولة المرابطين حتى أصبحت لها الكلمة النافذة فى سائر الجانب الغربى من الوطن الاسلامى وهو قد قوض بنيان هذه الدولة بنفوذه وتدبيره وتحريضه ، وأقام عـلى أنقاضها دولة جـديدة هى دولة الموحدين التى أسسهـا وقام بدعوتها تلميذه الثائر الطموح (محمد بن تومرت) الملقب بالمهدى .

وكذلك العبقريات دائما هى التى تصنع التاريخ ، وتوجه الاحداث ، وقد كان الغزالى أحد هذه العبقريات الضخمة فى تاريخ الفكر الانسانى فى ظل الاسلام .

الغزالي بين تيارات النضال

كان عصر أبى حامد الغزالى – كما وصفناه – عصرا يموج بتيارات الفكر البشرى ويفيض بمنابع العلوم والمعارف الانسانية من ثمرات العقل وتجارب الحس لجميع أرباب الملل والنحل وسائر المذاهب والفرق والطوائف ، وكانت عواصم الخلافة الاسلامية فى الشرق والغرب ميدانا تصول فيه فحول العلماء وزعماء الافكار ودعاة الفرق المختلفة فى محافل المناظرات والجدل ، وحلقات الدرس فى دور العلم ومعاهده ، وفى المساجد ومجامع ذوى السلطان من الخلفاء والوزراء والولاة ممن يحبون مدارسة العلم تمدحا به ومباهاة لمنافسة المتنافسين .

بيد أن هذا العصر الذى سمت فيه كلمة العلم كان عصرا منحل العرى السياسية ، مضطربا فى نظمه الحكومية ، متميعا غير متماسك ؛ تشعبت فيه الدولة الاسلامية العظمى الموحدة الى دويلات هنا وهنـاك ، اختلفت على نفسها ، وجعل الله بأسهم بينهم ، يحارب بعضهم بعضا ؛ لا تقوى احداها الا على حساب ضعف أختها ، ولا تنهض منها دويلة الى الاخذ بأسباب القوة والعزة الا لتذل جارة لها تواخيها فى ظلال الاسلام .

وكان أبو حامد رحمه الله قد بلغ فى عصره مكانة من عريض الجاه وبعد الصيت وواسع الشهرة مما جعله مصب حسد الحاسدين ، ونال من الحظ الارفع ما فاق به أقرانه ، وخلفهم وراءه مشدوهين ، بل سما بمقامه على أساتذته وشيوخه ، حتى قيل أن استاذه ومؤسس شخصيته الامام الاجل أبا المعالى عبد الملك الجوينى أمام الحرمين – وهو من هو كان – كما يقول قرين الغزالى فى التلمذة عليه عبـد الغافر بن اسماعيل الفارسى – (لا يصغى اليه سرا ، لابائه عليه فى سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف وان كان متخرجا به منتسبا اليه كما لا يخفى من طباع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضمـره) وكما يقول ابن السبكى فى الطبقات :

(ان الامام كان بالاخره يمتعض منه فى الباطن وان كان يظهر التبجح به فى الظاهر)

وصل الغزالى فى امامة الفكر وكفاح المعاصرين من جميع الفـرق والطوائف الى مرتبه لم تطمح اليها نفس تعاصره ، ولا طمحت شخصية

فى عصره أن تطاوله ، واقتعد من الفضل ذروة حسده عليها أهل الامانى والاحلام من الطامعين ، وحرد عليه لاجلها وزراء عصره وأمراء دهره ٠

وفى ذلك يقول عصريه وقرينه عبد الغافر الفارسى ، وهو شـــاهد عيان ومشافة بيان (فخرج من نيسابور ـ أى بعد موت أستاذه امام الحرمين ـ وصار الى المعسكر واحتل من مجلس نظام الملك محل القبول : واقبل عليه الصاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته وجرىء عبارته ، وكانت تلك الحضرة محط رجال العلمـاء ، ومقصد الائمـــة والفصحاء فوقعت للغزالى اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالائمة ومـلاقاة الخصوم اللداء ومناظرة الفحول ، ومناقدة الكبـار ، وظهر اســـمه فى الآفاق ، وارتفق بذلك كل الارتفاق حتى أدت الحال به الى أن رســـم للمصير الى بغداد للقيام بتدريس المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار اليها وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، وما لقى مثـل نفسه ، وصار بعد امامة خراسان أمام العراق ٠ وعلت حشمته ودرجته فى بغداد حتى كانت تغلب حشمة الاكابر والامراء ودار الخلافة ، فانقلب الامر من وجه آخر ، وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنـفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله : وترك الحشمة وطـرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام وأقام فى تلك الديار قريبـــا من عشر سنين) ٠

ويقول عبد الغافر أيضا : (وظهرت التصانيف وفشت الـكتب ولم تبدو فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا اعتراض لاحد على أمـره حتى انتهت نوبة الوزارة الى الاجل فخر الملك جمال الشهداء ٠٠٠ وقـــد سمع وتحقق بمكان الغزالى ودرجته وكمال فضله وحالته وأصفاءعقيدته ومعاشرته ، فتبرك به وحضره وســـــمع كلامه فاستدعى منه ألا يبقى انفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الالحاح وشدد فى الاقتراح ٠٠٠ وأشير عليـــه بالتدريس فى المدرسة الميمونة النظامية فلم يجد بدا من الاذعان للولاة ، ونوىباظهار ما اشتغل به هداية السراة وافادة القاصدين دون الرجوع الى ما تخلى عنه من طلب الجاه وممارة الاقران ومكاثرة المعاندين ، وكم قرع عصـــاه بالخلاف والوقوع فيه والطعن فيما يذره ويأتيه ، والسعاية به وٌالتشنيع عليه ، فما تأثر به ولا اشتغل بجواب الطاعنين ، ولا أظهر استيحاشـــا بغميزة المخلطين) ٠

ثم قال عبد الغافر : (ثم سألناه عن كيفية رغبته فى الخروج من بيته والرجوع الى ما دعى اليه من أمر نيسابور ؟ فقال معتـــذرا عنه :

ما كنت أجوز فى دينى أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالافادة ، وقد حق على أن أبوح بالحق وانطق به وادعو اليـــه · وكان صادقا فى ذلك ، ثم ترك ذلك قبل أن يترك ، وعاد الى بيته واتخـــذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية ··· الى أن اصابه عين الزمـان ، وضنت به الايام على أهل عصره ، فنقله الى كريم جواره بعد مقاسـاة أنواع من التقصد والمناواة من الخصوم والســـعى به الى الملوك ، وكفاه الله وحفظه وصانه عن أن تنوشه أيدى المنـكبات أو يهتك ستر دينه بشىء من الزلات) ·

هذا كلام صريح واضح يتحدث به الى التاريخ رجل عاصر الغزالى ، بل شاركه الدراسة على أستاذ عصره ، وأمام دهره أبى المعالى عبدالملك الجوينى أمام الحرمين بل ان عبد الغافر يصرح بانه كان يشك فى صدق اتجاه الغزالى الى الزهد والتجرد ، فيقول : (ولقد زرته مرارا وما كنت أحدث فى نفسى ما عهدته فى سالف الزمان عليه من الذعارة والنظر اليه بعين الازدراء والاستخفاف به كبرا وخيلاء واغترارا بمـا رزقه الله من البسطة فى النطق والخاطر والعبارة وطلب الجاه والعلو فى المنزلة انه صار على الضد ، وتصفى من تلك الكدورات ، وكنت أظن أنه متلفـــع بجلبات التكلف بما صار اليه ، فتحققت بعد التروى والتنقير ان الامر على خلاف المظنون ، وان الرجل افاق بعد الجنون ·

وحكى لنا فى ليال كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله وغلبت الحال عليه بعد تبحره فى العلوم واستطالته عـــلى الكل بكلامه والاستعداد الذى خصه الله به فى تحصـيل انواع العلوم وتمكنه من البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم العربية عـن المعاملة وتفكر فى العاقبة ومايجدى وما ينفع فى الآخرة ، فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ عنه استفتاح الطريقة وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان فى النوافل واستدامة الاذكار والجهد والاجتهاد طلبا للنجاة الى أن جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشـــقات وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده ·

ثم حكى لنا أنه راجع العلوم وخاصة فى الفنـــون ، وعاود الجـد والاجتهاد فى كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها وبقى مدة فى الوقائع وتكافؤ الادلة وأطراف المسائل ·

ثم انه حكى انه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شىء وحمله على الاعراض عما سواه حتى سهل ذلك ، وهكذا · وهكذا الى ان ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق وصار ما كنا نظن به تورسـما وتخلقا طبعا وتحققا ، وان ذلك اثر السعادة المقدرة له من الله ·

فعبد الغافر المتحدث عن الغزالي ثقة صدوق ، يتحدث عن مشاهدة لانه زميل معاصر مشارك للغزالي فى طلب العلم والتلمذة على أستاذهما أمام الحرمين ، فهو قرين عارف خبير بأحوال مجتمعه ، وقد شاهد الاحداث تجرى من حوله ، والوقائع تمر بين يديه ، هنا وهناك ؛ والغزالي يخوض لججها شجاعا جريئا ، مكافحا ؛ يقتحم عليها مخاطرها ؛ ويهجم عليها فى غمراتها ، مقداما ؛ وثوقا بنفسه معجبا بقوة ذكائه ؛ ورجاحة عقله؛ وسعة علمه ، وقوته على أقرانه وفحول أشياخه ٠

وقد شافهه عبد الغافر ليسمع منه سماع الناقد الحاذق المستبصر حكاية حاله ، ليستشف من خبيئات نفسه ما عسى أن يكون كامنا وراء منطق الاحداث من حقائق فى حياة هذا الزميل الذى تقلبت به الاحوال من طرف الى طرف ، قد تكون خافية عنه ، فشهادة عبد الغافر شهادة زميل لا يغلبه حسن الظن فى صاحبه والاعجاب به ، فهى شهادة صدق لا يأتيها الريب من بين يديها ولا من خلفها ٠

فالغزالي كان عبقريا مكافحا ، يخوض غمرات الحياة جسورا غير هياب ولا حذر ، وهذا الكفاح هو الظاهرة القوية الغالبة على عنونة حياته ، فهو منذ رحل من بلده « طوس » الى مجلس استاذه امام الحرمين فى ريعان الصبا وغضارة الشباب أخذ يلتهم بعقله العبقرى فاعتد هذا الامام الذى تفرد بامامة عصره من العلوم والمعارف التى قضى فى تحصيلها ودرسها دهره حتى استقامت له قناتها وصار فيها المشار اليه ٠

فلما تضلع منها الغزالي وارتوى ، وامتلاء عقله الواعى بما حصل وجمع ، أخذ وهو — بعد — لم يستخدر عذاره ، ولم يطر شاربه يقيد ويؤلف ، ويكتب ويصنف ، وينقد ويبحث ويجادل ويناضل ؛ وعقد لنفسه حلقة درس يحضرها للافادة منه أقرانه الذين رغبوا اليه اذ أنسوا منه قوة الفهم وسعة التحصيل أن يستعيدوا عليه بعض ما قرأوا على استاذه واستاذهم ليتثبتوا ويحققوا ويزدادوا علما ومعرفة ٠

وكان هذا التقدم من الغزالي بين يدى أستاذه لا يعجب أمام الحرمين، وكان يزور عليه منه ، ولم يثنه ذلك عن التطلع الى الاستقلال فى الجدل والبحث ، فانتهض لمناظرة خصوم الاسلام من المتفلسفة والرافضة والتعليمية القائلين بالامام المعصوم ، كما ناظر الخارجين على النصوص الدينية بالتأويل المتعسف من المعتزلة والخوارج ، وناهض الحرفيين الجامدين الواقفين مع ظواهر النصوص من المجسمة والمشبهة فقهرهم جميعا ، وعلا صوته على أصواتهم وأنكر على غلاة المتصوفة الجامحين مع الخيال من المعطلة القائلين بالوحدة بين الخالق والمخلوق ، ونقد الفقهاء

والمحدثين ، وعاب عليهم كثرة تفريعاتهم فى جزئيات يتكثرون بها ولما تقع فى الحياة ، نعى عليهم التعصب المذهبى ، وأخذ عليهم ركونهم الى ذوى السلطان من أهل الدنيا تطلعا لما فى أيديهم من حطامها ، وشنع عليهم فى سكوتهم عن القيام بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر خشية اغضاب أولئك الظلمة ، والدخول معهم فى مظالم سلطانهم من التنظر على الاحباس وجباية الاوقاف ؛ والتطلع الى مناصب القضاء والولايات ، والوصول اليها بالرشا والهبات ؛ وقد كان السلف الصالح يفر منها فراره من الاوبئة الفاتكة ؛ وحمل على جميع هؤلاء بقلمه ولسانه حتى نفر العامة منهم ، وشكك الخاصة فى أخلاقهم وعلومهم بل فى دينهم .

وكان الى جانب ذلك يرى أمام عينيه دار الخلافة وعواصم الاسلام تموج بالمنكرات والمظالم ويرى عرى الدين تنحل فيها عروة اثر عروة على مرأى مسمع من الخلفاء والملوك والامراء والحاكمين باسم الاسلام ، ويرى العلماء على كثرتهم ، خاصتهم مشغولون بأنفسهم ؛ منطوون فى المساجد والزوايا والمدارس ؛ لا يغيرون منكرا ؛ ولا يرفعون عن مظلوم ظلما ؛ ولا يدفعون باطلا ، ولا ينتصرون حقا ، وعامتهم منهمكون معأهل الدنيا من الحاكمين والمحكومين ، يلهثون وراء دنياهم ، ولا ينيلونهم منها الا فضلات فتاتهم بعد أن يسلبوهم دينهم ؛ مما ارمض نفسه ؛ ودفعه الى أن يجهر بالحق فى وجه الولاة والحاكمين وينعى على الفقهاء والمتكلمين والمحدثين موقفهم ، وذلك كله مع استيفاء واجبه العلمى مع العلماء والمفكرين فى حلبات البحث والمناظرة .

كل ذلك أغرى به حاسديه من جميع الطوائف للوقوع فيه ، والتشنيع عليه ، والسعاية به الى ذوى السلطان فى الدولة من الخلفاء والملوك والامراء والولاة وبطانات دار الخلافة الذين كانوا يرون حشمته تعلو فوق سلطانهم ، وسمو مكانته تسمو على مراتبهم ودرجاتهم بما منحه الله له فى قلوب العامة وطلاب العلم من محبة وتعظيم .

وكان لهذا الاغراء أثرهفى أنفس ذوى السلطان خوفا علىسلطانهم أن تطيح به صولة هذا الامام الذى ملك القلوب بعلمه وفضله وديانته واخلاصه ودفاعه عن حوزة الاسلام بلسانه وقلمه ، والذى غالب خصومه ـ وما كان أكثرهم ـ فقهرهم بحجته ، وذاع صيته فى آفاق الاسلام شرقا وغربا ، وشهرت شخصيته فى محافل العلم وميادين المعرفة ، الى جانب ما صادفه هذا الاغراء فىصدر أولئك الحكموبطاناتهم من هوى مكتوم فى الميل الى الايقاع بهذا الامام أو زحزحته عن مكانه من الحياة ، أو اقصائه عن مواطن سلطانهم بقسره علىالعزلة عن حياة الناس .

وأبو حامد الغزالى رحمه الله رجل دراك ، حصيف الذهن ، ألمعى الفراسة ، صادق الحدس ، لايخدع عن عقله ، نال ما نال من المكانة ، وهو فى فتوة الشباب ؛ وريعان الفتوة ؛ ومن حوله أقرانه الذين لم يلحقوا بغباره ، وأمامه أشياخه الذين خلفهم وراءه ، ولم يدركوا شأوه ، وهو يعلم ان الحسد داء البشرية القديم ، ومرض المعاصرة المقيم ، وفى ذلك يقول أبو حامد فى مقدمة كتابه (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) .

أما بعد فانى رأيتك أيها الاخ المشفق والصديق المتعصب موغر الصدر ، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الاصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين وان العدول عن مذهب الاشعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومباينته ولو فى شيء نزر ضلال وخسر ، فهون عليك أيها الاخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك وقل من غربك قليلا واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر او الضلال لا يعرف) .

وكان الغزالى قوة من العبقرية الثائرة ، يحمل بين جنبيه شحنة من خصائص الامتياز الانسانى فى عقله وروحه ، يزكيها الكفاح ، وينميها النضال .

فهو لم يكد يرى المدرسة النظامية ، مدرسته الاولى فى نيسابور تخلو من استاذه العظيم امام الحرمين الذى انتقل الى جوار ربه فى سنة ٤٧٨ هجرية ــ وعمر الغزالى يومئذ ثمانية وعشرون عاما ــ حتى استوحشت نفسه ــ فعزم على الرحيل ميمما شطر المعسكر حيث رحاب الوزير العالم الفاضل نظام الملك ، وزير الدولة السلجوقية ، ومؤسس المدارس النظامية فى نيسابور وبغداد وسواهما من حواضر الاسلام ، وهى أول مدارس فى تاريخ الاسلام بعد البهيقية ــ كان للعلماء وطلاب العلم فيها نظام استقرارى يفرغهم للبحث والدراسة .

وكان نظام الملك محببا للعلم والعلماء ، يميل الى التشبه بهم ، ويود لو أن التاريخ أدخله فى زمرتهم ، شغوفا بحسن الاحدوثة فى المعرفة ؛ متمسكا بمذهب أهل السنة ، عطوفا على الصوفية ، محسنا اليهم ، حفيظا على الديانة ؛ قواما بواجباته السياسية ، بذولا فى سبيل الخير ونشر المعرفة والعلم ، يحفل مجلسه بفحول العلماء من كل مذهب ، ودعاة الفرق وزعماء النحل للمناظرة والبحث .

وجد الغزالى فى محافل هذا الوزير العملية فرصته الكبرى ، فاقتحمها

بشبابه جسورا على الفحول من المشيخة والكهول ، فصال وجال ، وناظر وجادل ؛ حتى علت حجته على سائر مناظريه في كل مجال ، وظهر بجراته، وشهر ببراعته ؛ وقهر خصومه بمناظرته ، وانفرد بامامه خراسان ، ودان له فيها كل ذى بيان بالقلم واللسان ، وجد به الجد ، وسمت نفسه الى آفاق أرفع ، ورحاب أوسع ، وأى ميدان املأ بذخائر العلم والمعرفه من محط رحال الغطارفة ، دار الخلافة بغداد ؛ فهى اذ ذاك موئل الفصحى وملاذ الاسلام ، وملجأ الانام ؛ ومطمح كل عبقرى فى فنون العرفان •

لقد أقبل نظام الملك على الغزالى لما رآه فيـــه من مخايل العبقرية ، ومؤذنات الامامة ومعالم الفضل والديانة اقبالا ايقظ فى نفس الغزالى دواعى المجد ، ورشح كبار الآمال وحرك منه رغائبه فى غزو محافل بغداد عاصمة العراق بعد امامة خراسان ، وبهما تتم امامة دنيا الناس فى ذلك الزمان

رأى نظام الملك أن مدرسته النظامية فى بغداد فى حاجه الى عبقريه تضفى عليها من جلال التقديس التاريخى وقداسة المعرفة ما أضفى استاذ الاستاذين امام الحرمين من قبل على نظامية نيسابور ، فرسم للغزالى — وقد وجد فيه طلبته — بالتوجيه اليها ليلى رياسة تدريسها واستاذية روادها من أعلام العلماء ومتكملى طلاب العلم من ذوى الاختصاص الذهنى والامتياز الفكرى

استجاب الغزالى ونهض حازما عزائمه الى حاضرة الدنيا وجامعة المعارف « بغداد — وألقى بها عصا الترحال ، وتولى مهام منصبه ، وقام بالتدريس والمناظرة ، وأعجب به جهابذة الفكر النحارير اعجابا فرقته نوازع المعجبين ومشاربهم ، بين الاعجاب القائم على دعائم تقدير المحبة والغبطة بامام كان هؤلاء المعجبون يفقدونه حسا مشهودا فى زعامتهم ويتراءونه فى أحلامهم أملا طائرا فى آفاق الاسلام ، حتى تمثلوه بينهم حقيقة وجودية تقودهم من نصر الى نصر ، وبين الاعجاب القائم على التقدير لقوة فكريه قاهرة افتقدها هؤلاء المعجبون فى زعامة مناهضيهم حتى غافصتهم وهم فى نشوة الاعجاب بأنفسهم فأدهشتهم وأطاحت بأباطيلهم ، وأفاقوا من غشيتهم على صليل سلاح من الحجة الدامغة لم يألفوه فى معاركهم الجدلية مع خصومهم ، وهم

ينظرون الى هذه القوة فى أهاب هـذا الامام وكأنما فى صـدورهم حسك السعدان ، أو ضرام النيران • ولقد صدق عصرية المؤرخ الثقة عبد الغافر الفارسى فى حديثه عنه يومئذ اذ يقول : (وما لقى مثل نفسه ، وصار بعد امامه خراسان امام العراق) •

هذا الوضع التاريخى الذى وضعت فيه شخصية الغـزالى لا ينبغى

الاعتماد عليه وحده فى تحديد معالم تلك الشخصية ، ووضعها فى مكانها من الحياة الفكرية .

ومفتاح شخصية الغزالى المفكر ماثل — فى رأينا — فى تتبع أطوار حياته ، ودراستها مرحلة مرحلة ، دراسة مرتبة ؛ تستهدف فى منهجها معرفة ما كان عليه من السلوك ، وما أنتجه فى كل طور ومرحلة من أطوار ومراحل تلك الحياة من الافكار والاعمال ، ثم الكشف عن صلة كل مرحلة وطور بما سبقه من اطوار ومراحل ، لان الغزالى كان فى حياته متوثبا سريع « التطور » كثير الاطوار ، متحفز النفس ، فوار العقل ، مستوفز الصدر . لم تعرف حياته الهدوء والاستقرار : فهو اذا هدأ بجسمه واعتزل الناس والحياة فى بعض أطوار حياته ، فان روحه كانت فى هذه العزلة المغلفة بالهدوء ، متوثبة ، وقلبه كان فيها يغلى غليان القدور تشتعل من تحتها النيران ؛ تفور نفسه ؛ ويتوثب عقله بحثا وراء الحقيقة التى كانت تتراءى له فى كل طور من أطوار حياته فى أطار من صنع هذا الطور الفكرى والاجتماعى .

فقد تراءت له الحقيقة بظلالها الباهتة فى طور تصوفه البدائى التقليدى وهو فى طور الطفولية والصبا على يد شيخه ومربيه الاول ، ذلك الصوفى صديق ابيه ، ووصيه عليه فعلق منهما بقلبه ووجد أنه ما يعلق بالنفس المرهفة من آثار الرؤى الصادقة والاحلام المشرقة .

ثم تراءت له فى دراسة الفقه على مذهب الامام الشافعى الذى درس اوائله فى صباه ببلده «طوس» على شيخه ابى حامد الرذكانى ، قال تاريخ الدين السبكى فى الطبقات : وهذا الرذكانى أحد اشياخ الغزالى فى الفقه تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين .

ثم رحل الغزالى لدراسة الفقه بأوسع مما وجده عند الرذكانى الى جرجان ، وعلق عن الامام ابى نصر الاسماعيلى (١) — كما يقول ابن السبكى فى الطبقات — التعليقة ، ثم عاد الى بلده «طوس» يحفظ ما علق وكتب ، ومكث فى حفظ ذلك ثلاث سنين كما يحكيه عن نفسه فى روايه أسعد الميهنى ، خشية أن يفقد علمه بفقد تعليقته كما وقع له فى حادث قطع الطريق عليه وهو عائد من جرجان ، وهى حكاية مشهورة ، ملخصها أن العيارين قطاع الطريق سلبوه جميع ما كان معه ، قال الغزالى : فتبعتهم فالتفت الى مقدمهم ، وقال ارجع ويحك ، والا هلكت ؛ فقلت له : اسألك بالذى ترجو منه السلامة ان ترد علي تعليقتى فقط ، فما هى بشيىء تنتفعون به ؛ فقال لى : وما هى تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاه

(١) يظهر انه وقع التباس بين ابى نصر هذا وهو متوفى سنة ٤٠٥ هـ والغزالى ولد سنة ٤٥٠ هـ فغير معقول مشيخته للغزالى وبين ابى القاسم الاسماعيلى ، وهو من أسرة ابى نصر وكانت وفاته سنة ٤٧٧ هـ فمعقول ان يكون هذا هو شيخ الغزالى .

هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى انك عرفت علمها وقد اخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم امر بعض اصحابه فسلم الى المخلاه فقلت لنفسى : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدنى فى امرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم اتجرد من علمى

وهذه الحكاية مرتبطة برحيل الغزالى من بلدة «طوس» الى جرجان بعد ان استوفى ما عند شيخه الرذكانى من الفقه ، وأراد ان يتسع فى دراسة الفقه بالاخذ عن الامام ابى نصر الاسماعيلى فقيه جرجان فى عصره

ولنا فيها وقفة .

أولا : ان رحيل الغزالى من طوس الى جرجان فى مبدأ حياته لم يذكره عصريه عبد الغافر مع أنه أطال الرشاء فى ترجمة الغزالى وأبدى فيها واعاد .

ثانيا : هذا الرحيل أغفله ابن السبكى نفسه فى ترجمة أول شيخ للغزالى فى الفقه وهو ابوحامد الراذكانى ، وجعل التفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين ولم يشر الى رحلته لجرجان .

ثالثا : الامام أبا نصر الاسمأعيلى الذى تقول الرواية عنه ان الغزالى علق عنه تعليقته المذكورة فى الحكاية توفى ــ كما يقول ابن السبكى نفسه فى الطبقات ــ سنة خمس وأربعماية ،

والغزالى ولد فى سنة خمسين واربعماية ، فكيف أخذ عنه ؟

ولهذا نرى أن هذه الحكايه من تكثر الرواة ، وقبلها ابن السبكى تكثرا أيضا فى شأن الامام الغزالى ، الا أن يكون فى الأمر التباس فى تواريخ الرجال ، وهذا شىء لا يقوم عندنا الا على شك مبعثه حسن الظن فى أهل العلم ، وقد ذكرنا فى هامش ص ٣٩ ما يكشف هذا الالتباس .

وأيما كان الامر فان المحقق من التاريخ ان الامام الغزالى طلب أول مأطلب من العلم بعد مرحلة التربية الصوفية فى طفوليته ، علم الفقه فدرس منه فى صباه ما تهيأ له ، ثم رحل الى نيسابور ، وكانت احدى حواضر العلم والمعارف ، وفيها تتلمذ على مؤسس شخصيته العلمية ... الاستاذين الامام عبد الملك الجوينى امام الحرمين (١) ، وكان هذا الامام أحد العقول الاسلاميه الفذة فى عصره ، وكان قيم المذهبين ، مذهب الفقه

(١) توفى سنة ٤٧٨ هـ

على اصـــــول الامام الشافعي . ومذهب الكـلام والجدال على أصـــــول مذهب الامام الاشـــــعرى ، فوجد فيه الغزالى طلبته المرغوبة وضالته المنشودة ، فلازمه — وهو فى سن الشباب والفتاء — وجد واجتهد ونافس وزاحم حتى برع فى الفقه والخلاف والجدال ، وفاق أقرانه فى اصول الفقه والعقائد والمنطق . وفى هذا الطور من حياته تصدى للمناظرة والجـــدل والرد على المخالفين من اساطين المعتزلة ، ودهاقين التعليمية القائلين بالامام المعصوم ، وكان الحجة فى فهم مذاهب مخالفيه وآرائهم ، يقررهـــــا قبل الرد عليها بافوى واوضح مما يقررها أصحابها حتى عيب عليه ذلك وقيل له : انك تقرر شبه خصومك ومذاهبهم بما لم يســـتطيعوه فكان يعتذر عن صنيعه هذا بقوله : انى قصرت فى تقرير شـــبهة الخصم ان أرمى بعدم فهم كلامهم .

وذاع صيته فى هذا الطور من حياته ، وتكالب عليه أرباب النحل، وتألب عليه زعماء الفرق ، ورموه عن قوس واحدة ، فرسخ لهم طوده ، فلم يفلوا له قناة . وتكسرت على صخرة عزائمـــه سهامهم فلم يثلموا له صفاة ، وقد فتح عليه الجدل والخوض فى علم الكلام أبوابا من مسائل الفلسفة الالهية فى العقائد ، فدرسها على أساتذة امام الحرمين مع المنطق والحكمة حتى أحكم ذلك كله — كمـــا يقول ابن السبكى — ودرســـها استقلالا من غير معلم أو أستاذ موفق — كما يقول الغزالى عن نفسه (ثم انى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى اعلمهم فى أصل العلم ثم يزيد عليهم ، ويجاوز درجته فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغـــايلة ، فاذ ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساده حقا ، ولم أر أحدا من علماء الاســـلام صرف عنايتـــه وهمته الى ذلك ولم يكن فى كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بغافل عامى ، فضلا عمن يدعى دقائق العـلوم فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى فى عماية ، فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأســـتاذ ومعـــلم وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التدريس والتصنيف فى العلوم الشرعية ... فاطلعني الله سبحانه بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات المختلسة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب عـــلى التفكير فيه بعد فهمه قريبا من سنة أعاوده واتفقد غوائله وأغواره حتى أطلعت عـــلى ما فيه من خـــداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعا لم أشك فيه) (١)

(١) المنقذ من الضلال

والغزالي رحمه الله يصف نفسه في هذا الطور ــ وهــو اهم أطوار حياته ، وأعظمها ثورة مع نفسه ومع الحياة الفكرية عامة ــ فيقول (ولم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن . وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجةهذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحـــــذور ، واتوغل في كل مظلمة . واتهجم على كل مشكلة واقتحم كل ورطة وأتفحص عقيـدة كل فرقــــه واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لاميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطانته ولاظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته . ولا متكلما الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا الا واترصد ما يرجــع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا واتجسس وراءه للتنبيه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من أول امري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا .

وهذا النص واضح جدا في ان الغزالي يصرح بانه انحلت عنه رابطة التقليد ودخل في زمرة الائمة المجتهدين من احرار الفكر في اوائل سن الشباب ، لانها هي السن التي تكون قريبة عهد بسنا الصبا ، وتلك هي سنة أيام تلمذته لامام الحرمين ، وهي مدة لاتقل في التقدير التقريبي المبني على تتبع أطوار حياته عن ثماني سنوات ، وكانت أخصب أيامه

اى تقليد تحرر منه الغزالى
وأى علم حل عنه رابطة ذلك التقليد

وهنا نتساءل ، أى تقليد هذا يقول الغزالى انه قد انحلت عنه رابطته نتيجة لتعطشه الى ادراك الحقائق ، واقتحامه لجة بحر العلوم والمعارف اقتحام الجرىء الجسور ، وخوضه غمرة الفكر ، وتوغله فى خضم كل مشكلة ، وتهجمه على كل معضلة ؟ اهو تقليد عام فى جميع العلوم والمعارف والفنون التى عرفها عصره ؟

هو تقليد خاص بأصول الدين وعقائده ؟

ونتسائل مرة أخرى ، أى علم هو الذى استبحر فيه الغزالى ، وعرف مداخله ومخارجه واستوعب ظواهره ، وكشف الغطاء عن بواطنه ، وسهر فى قضاياه ومسائله حتى كانت كأنها من بنات أفكاره وصنعه قريحته وأصبح فيها الامام الذى لايرجع الى أمام ؟

والذى يؤخذ من كلام الغزالى أنه يقصد الى التقليد فى العقائد ؟ بدليل قوله فى النص السابق (وأنكسرت على العقائد الموروثة) وبدليل قوله فى آخر كتابه « ميزان العمل » (تحت عنوان بيان معنى المذهب واختلاف الناس فيه : لعلك تقول : كلامك فى هذا الكتاب انقسم الى ما يطابق مذهب الصوفية والى ما يطأبق مذهب الاشعريه وبعض المتكلمين ولايفهم الكلام الا على مذهب واحد ؟ فما الحق من هذه المذاهب ؟ .... الى ان يقول فجانب الالتفات الى المذاهب ، وأطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب)

ومن ثم يظهر انه لا يدخل التقليد فى فروع الفقة فى قصده ، والا تكون انحلت عنه رابطه التقليد فيها وهو فى مؤلفاته الفقهية كالبسيط والوسيط والوجيز يقرر مذهب الشافعى وان كانت له اجتهادات فى بعض فروع الفقه والمسائل العارضة فهى لاتخرجه عن التقليد فى دائرة اصول امامه الشافعى رضى الله عنه ، فهو بحسب اصطلاح الفقهاء مجتهد مذهب ، بلغ درجة الترجيح بين أقوال شيوخ المذهب ، وقد يجرى الغزالى على سجيته فى التحرر الفكرى فيرجح مذهب غير الشافعى عليه كما صنع فى مسائل المياه وازالة النجاسة حيث رجح مذهب مالك فيها وارتضاء الغزالى

فى كتاب (جواهر القرآن) يهون من شأن الخلاف فى علم الفقه ، ويراه قريبا ويرى أن الخطأ فيه غير بعيد من الصواب ، ويتأسف نادما على انه ضيع شطرا صالحا من عمره فى تصنيف الخلاف منه ، مع اعترافه بأن الحاجة اليه تعم لتعلقه بصلاح الدنيا أولا ثم بصلاح الآخرة ، ولذلك رزق هذا العلم مزيد بحث واطناب وعظم فيه الجاه والحشمة مما وفر الدواعى على الافراط فى تفريعه وتشعيبه ويرى ان ذلك مخالف لطريقة الاولين من السلف الصالح الذى كانوا لايستغرقون جملة العمر فيه • ثم

ان الغزالى يعترف بأنه لم يكن ممن عنوا بالحديث والخلافيات فى مسائل الفروع ، وهما من أوائل مايعتمد عليه المجتهد فى الفروع الفقهيـــة ، وموضوعات التعبد والمعاملات بين الناس ، وقد يكون من أسباب ذلك أن عصر الغزالى كان عصر جدل فى العقيدة ، وكان الفقه التشريعى فيه قد استقرت أصوله وكثرت مؤلفاته وتعددت تفريعاته ،

وانحلال رابطة التقليد فى العقائد وهو الذى يقصده الغزالى واجب كل من تأهل للنظر فى الادلة ، فهل يقصد أبو حامد بذلك منهجه فى علم الكلام ؟ انه يأبى على البحث ان يؤمن بأن علم الكلام أخرجــه عن التقليد الى الاجتهاد لانه يقول (ثم انى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المتقدمين المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علما وافيابمقصوده ، غير واف بمقصودى ، وانما مقصوده حفظ عقائد اهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش اهل البدعة • ولكنهم ــ أى المتكلمين ــ اعتمدوا فى ذلك على مقدمـــات تسلموها من خصومهم اضطرهم الى تسليمها أما التقليد او اجماع الامة أو مجرد القبول من القرآن والاخبار ، •••• فلم يكن الكلام فى حقى كافيا ولا لدائى الذى كنت اشكوه شافيا) ويقول فى كتاب « جواهر القرآن »ومن قسم محاجة الكفار ومجاد لتهم يتشعب علم الكلام ، المقصود لرد الضلالات والبدع وازالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون ، وهذا العلم شرحناه على طبقتين: سمينا الطبقة القريبة منهما الرسالة القدســية والطبقة التى فوقها « الاقتصاد فى الاعتقاد » ومقصود هـــذا العلم حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ولايكون هذا العلم مليا بكشف الحقائق •

فعلم الكلام اذن لم يكن هو الذى حل رابطة التقليد فى العقائد عن الامام الغزالى على اننا لاندرى كيف أن مجرد القبول من القرآن أو الاخبار المقطوع بها عند النبى صلى الله عليه وسلم لا يحل رابطة التقليد عمن يفهم المقطوع بها عن النبى صلى الله عليه وسلم لايحل رابطة التقليد عمن يفهم طرائق الاستدلال بها ؟

كان الغزالى لايرى ان الادلة النقلية اذا كانت قطعية النص والدلالة تكفى فى حل رابطة التقليد وانكسار العقائد الموروثة ، وما موقفه من

جمهور الصحابة وسائر الائمه قبل ظهور طرائق الاستدلال الكلامية ؟

واذا كان علم الكلام بطرائقه الاستدلالية ، ومجرد القبول من القرآن والسنة الثابتة لم يحلا رابطة التقليد عن الامام الغزالى فأى علم وراءهما يمكن أن يسند اليه حلها أهو علم الفلسفة ؟ وقد درسه الغزالى بعدفراغه من علم الكلام الذى لم يكن وافيا بمقصوده . وكانت دراسته للفلسفه — كما — يقول — من قراءة كتبها دون موقف ولا معلم فى أوقات فراغــــه من دروسه وتصنيفه ، ويقول انه حصلها حتىبلغفيها أنهفاق أعلمعلمائها فى سنتين وردد النظر بعد فهمها قريبا من سنة حتى اطلع على مافيها من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعا لم يشك فيه .

وهنا نتساءل اية فلسفة هى التى يقصدها الغزالى بهذا الكلام الذى تبجح به فى كتابه المنقذ من الضلال ؟ أهى الفلسفة التى يعرفها الفلاسفه القدامى من الاوائل بجميع أبوابها وفروعها ؟ ويعرفها الفلاسفة الذين نشأوا فى ظل الاسلام ، الذين رد عليهم وكفرهم كابن سينا والفارابى والكندى وأمثالهم ممن تقدمه زمانهم .

ان الغزالى يجيب عن ذلك فى بساطة وثقه بالغة فيقول (فأطلعنى الله سبحانه بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات المختلسة على منتهى علومهم ...) ثم أخذ يعدد طوائفهم فــــذكر (الدهريين) و (الطبعيين) و (الالهيين) وذكر أن علومهم بالنسبة الى غرضه تنقسم الى رياضيــــة ، ومنطقية وطبيعية والهية ، وسياسية ، وخلقية ثم تكلم على كل قسم ادخل تحته فنونا .

ونحن نقف فلا نستطيع الحكم على أبى حامد فى هذا ، ولا الحكم له ، وان كنا نؤمن انه لا حرج على فضل الله ، مع أنه ذكر فى مقدمات التهافت ان أراء الفلاسفة منتشرة وطرقهم متباعدة ، ومع ان مؤرخيه من أمثال أبن السبكى وعبد الغافر ذكروا فيما ذكروه من الفنون التى أحكمها على استاذه امام الحرمين العلوم الدقيقه والفلسفة .

ومن ثم فاننا نظن ظنا قويا فى توجيه كلام أبى حامد واطلاعه على الفلسفة فى مدى — سنتين من مجرد قراءة كتبها دون معلم واستاذ ، أن أبا حامد أخذ عن أستاذه امام الحرمين مبادىء الفلسفة ممزوجة فى علم الكلام والجدل ، فرسخ منها فى ذهنه كثير من أصولها بمصطلحاتها ولا مستعينا بمطالعة كتبها على ضوء ما أخذه عن استاذه امام الحرمين ، وقد كان له فيها القدح المعلى غير انه ماكان يظهر بها كما يدل على ذلك كلامه فى كتاب البرهان الذى اشتمل على معضلات فلسفية لاتزال مغطاه على

العقول ويدل لذلك كلام عبد الغافر حيث ذكر الفلسفة في ضمن العلوم التى برع فيها الغزالى على يد استاذه أمام الحرمين ، كما يدل على تبحر أمام الحرمين فى الفلسفة وان لم يشهر بها قوله فيما يرويه ابن السبكى فى الطبقات عن ابن السمعانى فى الذيل انه قرأ بخط ـ الحافظ بن جعفر الهمدانى ، قال ، سمعت أبا المعالى الجوينى يقول : لقد قرأت خمسين ألفا فى خمسين ألفا ثم خليت أهل الاسلام بأسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة وركبت البحر الخضم وغصت فى الذى نهى عنه أهل الاسلام منها • كل ذلك فى طلب الحق وكنت أهرب من التقليد والآن قد رجعت عن الكل الى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز فان لم يدركنى الحق بلطف بره فأموت على دين العجائز وتختم عاقبة أمرى عند الرحيل على نزهة أهل الحق وكلمه الاخلاص ، لا اله الا الله فالويل لابن الجوينى •

قال ابن السبكى : قلت ظاهر هذه الحكاية عند من لاتحقيق عنده البشاعة وانه خلى الاسلام وأهله ، وليس هذا معناها ، بل مراده انه أنزل المذاهب كلها فى منزلة النظر والاعتبار غير متعصب لواحد منها ، بحيث لايكون عنده ميل يقوده الى مذهب معين من غير برهان ثم توضح له الحق وانه الاسلام فكان على هذه الملة عن اجتهاد وبصيره لا عن تقليد ، ولا يخفى أن هذا مقام عظيم لا يتهيأ الا لمثل هذا الامام ، وليس يسمح به لكل أحد ، فان عائلته تخشى الا على من برز فى العلوم وبلغ فى صحه الذهن مبلغ هذا الرجل العظيم •

ونتبع هذا الظن بظن آخر وهو أن الغزالى قرأ من الفلسفة مختصرات استوعب اكثر ابوابها وتوسع فى باب الالهيات لصلته القوية بعلم الكلام وأنه اعتمد على كتب ابن سينا والفارابى اللذين اعتبرهما أقوم الفلاسفة بمذهب أرسطو ، وعبارة ابن سينا قريبة الفهم اكثر من عبارة غـــيره والناظر فى كتابه الاشارات يجد كثيرا من ألفاظه وعباراته ممزوجا فى كتب الغزالى ، ولا سيما كلامه فى اشاراته عن العارفين ومقاماتهم والزاهدين ودرجاتهم وقد يكون الغزالى قاصدا هذا النحو فى رده على اعتراض من اعترض عليه فقال : (ولقد اعترض على بعض الكلمـــات المبثوثة فى تصانيفنا فى أ رار علوم الدين طائفة دن الذين لم تستحكم فى العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح الى أقصى غايات المذاهب ببصائرهم ، وزعم ان تلك الكلمات من كلمات الاوائل مع أن بعضها من مولدات الخاطر ، ولا يبعد ان يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد فى كتب الشريعه واكثرها موجود معناها فى كتب الصوفية ، وهب انها لم توجد الا فى كتبهم فاذا كأن ذلك كلاما معقولا فى نفسه مؤيدا بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلا ينبغى ان يهجر وينكر ؟

بهذا الظن يمكن حل عقدة التوقف فى قبول دعوى الامام الغزالى فى اطلاعه على الفلسفة ودراستها دون استاذ ومعلم حتى كان أعلم من أعلمهم .

ولكن هل هى الفلسفة التى حلت عنه رابطة التقليد بعد اذ عجز عن ذلك علم الكلام ؟

ان الامام الغزالى لم يلق فى الفلسفة ولا فى الفلاسفة بل أنه صرح بانه درس - الفلسفة ليرد عليها ، ويقول فى التهافت (انه ابتداء تحرير هذا الكتاب ردا على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت عقيدتهم وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراته التى هى على التحقيق مضاحك العقلاء) .

واذا كان هذا الكلام صريحا فى القدماء من امثال ارسطوواستاذه افلاطون ، فان الغزالى لم يحجم عن التصريح فى كتابه المنقذ عن ادخال من تبع القدماء من متفلسفة الاسلام كابن سينا والفارابى معهم فى التفكير بما كفرهم به .

فعلم الفلسفة اذن ليس هو الذى حل رابطة التقليد عن الغزالىفى قرب عهد بسن الصبا .

واذا كان علم الكلام والفلسفة عجزا عن حل رابطة التقليدعن الغزالى فماالذى حلهاعنه ؟ أهو التصوف الذى انتهى اليهالغزالى ، ويقول عنه (ثم لمافرغت منهذهالعلوم اقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقباتالنفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى) .

ويقول (أنى علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الاخلاق ، بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوهبما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا) .

والصوفية فى نظرالغزالى هم أهلالكشفاللدنى الذى هو (نوريقذفه الله تعالى فى الصدر) دون نظر فى دليل أو ترتيب كلام ، كيف يحل هذا رابطة التقليد فى العقائد ؟ قد يكون مسلما بالنسبة للشخصفى ذاته اذاتحقق له مايقوله الصوفيون من الكشف الذى ينتهى كمايقول الغزالى الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ)لكن الحالة اذا سلمت الى اربابها وحلت عنهم

رابطة التقليد في ذواتهم فقط ، فهي ليست حالة العلماء المجهدين في تأسيس عقائدهم هم على النظر والبرهان ٠

لكن الغزالي رحمه الله يحل هذا الاشـــكال بما يقوله في كتاب (ميزان العمل) تحت عنوان (المذهب الثالث) ما يعتقده الرجل سرا بينه وبين الله عز وجل لايطلع عليه غير الله تعالى ولايذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما أطلع أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهمه) ٠

ومعنى ذلك أن الانسان يعيش مع النـاس بمذهب وعقيدة ، ومع نفسه فيما بينه وبين الله بمذهب وعقيدة ولا ندرى ماهذا ؟ الا ان يكون شيئا جاء من قبيل خبيئات الفلسفة أو مذهب التعليمية أصحاب الامام المعصوم والسر المكتوم ، والامام الغزالي يرد عليهما ويزيف مذهبهما ٠

متى تصوف الغزالي ؟؟

واذا قبلنا أن التصوف يمكن أن يحل رابطة التقليد في خاصـــة الانسان وداخل نفسه وهو الذى حل رابطة التقليد عن الغزالي ، فمتى تصوف الغزالي تصوفا انتهى به الى الكشـــف عن حقائق الغيب فيكون الايمان مع هذا الكشف ايمان مشاهدة وحضور وهذا لاتقليد فيه ؟ هل تصوف في سن قريبة عهد بسن الصبا التى يقول انه انحلت عنه فيهـا رابطة التقليد ؟

ليس بين باحثى الغزالي من يقول انه تصوف مبكرا ، سوى ما لفتنا اليه النظر من بداية حياته على يد شيخه الصوفي الذى وصاه أبوه عليه وعلى أخيه ، وقد استروحنا أن تربية الغزالي بدأت صوفية غير ان هـذه الحالة لم تتصل ، لان طلبه العلم وخوضه بحار العلوم واشتغاله بنضال الفرق المخالفة قطعها ، فبقى مابقى منها راسبا في قاع نفسه حتى حركته النهاية « الصوفية » العظمى التى انتهى اليها الغزالي في آخر حياته بعلمه وعقله وقلبه ٠

على أن بعض الروايات يقول : أن الغزالي كان ينكر على الصوفية أحوالهم حتى هداه الله لطريقتهـــم على شيخه النساج ٠ روى الزبيدى في شرح الاحياء عن قطب الدين ٠

محمد بن الاردبيلي قال : قال حجة الاسلام : كنت في بداية امرى منكرا لاحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخي يوســف النساج بطوس ، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله في المنام ، فقال لي : يا أبا حامد ، قلت : أن الشيطان يكلمني

قال : لا ، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست ، ثم قال : يا أبا حامد ذر مساطرك واصحب أقواما جعلتهم في أرضي محل نظري ، وهم الذين باعوا الدارين بحبي ، فقلت : بعزتك الا أذقتني برد حسن الظن بهم ، فقال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختارا قبل ان تخرج منها صاغرا ، فقد افضت عليك أنوارا من جوار قدسي ففزونل ، فاستيقظت فرحا مسرورا وجئت الى شيخي يوسف النساج فقصصت عليه المنام فتبسم ، قال : يا أباحامد، هذه الواحنا في البداية محوناها بأرجلنا ، بل ان صحبتني سيكحل بصر بصيرتك باثمد التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد مالا تدركه الابصار ، فتصفو من كدر طبيعتك وترقى على طور عقلك ، وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى (انى انا الله رب العالمين) ٠

هذه رواية نذكرها لانعرضها على العقل ليحكم لها أو عليها ، لان أحوال الصوفية ومدركاتهم فوق طور العقل ، كما يقولون عن أنفسهم وانما ذكرناها لنبين اننا نقف منها موقف الشك ، لما اشتملت عليه من انكار أبى حامد لاحوال الصالحين ومقامات العارفين ولم نطلع على شيء من الانكار فى كتب الغزالى التى قرأناها ، وانما كان ينكر على الحلوليين ممن يدعون التصوف وغيرهم من فرق الضلال ، وظل على ذلك الى آخر حياته ينكر عليهم ويجاهدهم بحجة العقل وقواعد العلم والشرع ، أما صالحو القوم وعارفوهم فكان محابلهم منذ رضع البانهم الى ان فطم على ايديهم ٠

وفى هذه الحكاية أيضا ما يؤيد نظرية التصوف فى قول رجاله : أن العلم حجاب ، فقد قيل لابى حامد فى هذه الحكاية ذر مساطرك واصحب اقواما فى أرضي جعلتهم محل نظرى ٠

وفيها ان الغزالى تصوف بعد ان طوف الافاق وبحث ودرس وجادل ،ثم عاد الى بلده طوس ليستقر فيها وهناك اجتمع بالنساج وأخذ عليه الطريق فلم يكن التصوف مما عناه فى حل رابطة التقليد ٠

على ان هناك رواية يرويها الشعرانى نقلا عن محيى الدين بن عربى تفيد ان تصوف الغزالى لم يخلصه تماما من حجاب العلم ، قال ابن عربى (وكان الغزالى يقول : لما أردت ان انخرط فى سلك القوم وأشرب من شرابهم نظرت الى نفسى فرأيت كثرة حجبها ولم يكن لى شيخ اذ ذاك - فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما فانقدح لى من العلم ما لم يكن عندى ، أصفى وأدق مما كنت أعرفه ، فنظرت فيه فاذا فيه قوة فقهية ، فرجعت الى الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما فانقدح لى علم آخر ، أرق وأصفى مما حصل عندى أولا ، ففرحت

به ، ثم نظرت فيه ، فاذا فيه قوة نظرية فرجعت الى الخلوة ثالثا اربعين يوما فانقدح لى علم آخر هو أرق ـ واصفى ، فنظرت فيه فاذا فيه قـوة ممزوجة بعلم علم ، ولم الحق بأمل العلوم اللدنية فعلمت ان الكتابة على المحولنيست كالكتابة على الصفاء الاول والطهارة الاولى ، ولم اتميز عن النظار الا ببعض أمور . قال ابن عربى : رحم الله أبا حـامد ماكان اكثر انصافه وتتحرزه من الدعوى).

وهذه الرواية أظهر في أن العلم حجاب عن الفتوحات اللدنية ، وانما يكون الفتح عن طريق العلم فى باب العلم ، وهى تدل على أن مقام الغزالى فى التصوف محدود ، وأنه لو تصوف منذ بدايتـــه على مقتضى فطرته لادرك السابقين من العارفين .

وقد يكون تفكير الغزالى فى التصوف العلمى والعملى بدأ فى أيام اقامته بالمعسكر بعد رحيله اليها من نيسابور عقب وفاة أستاذه أمام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ وأقام بها الى سنة ٤٨٤ هـ وكان فى هذه المدة يحضر مجالس نظام الملك للمناظرة والدفاع عن عقيدة أهل السنة التى كان النظام القيم السياسى عليها فى عصره ، وكان نظام الملك سنيا صوفيا شديد التعلق بالصوفية ، شديد التعصب لهم ولمبادئهم ، مسرفا أشد الاسراف فى البذل عليهم واعداد التكايا لهم ، وخدمتهم ، وتوفير الفراغ لهم لتعبدهم وصفاء أوقاتهم .

حتى واجه الخليفة بتلك القولة المأثورة عنه وهو يعاتبه لاسرافـه فى انفقه عليهم ، وشغله بهم وأهمــــال الجيوش ، وأمور الدولة وسياستها .

(لقد أقمت لك عبادا بالليل لو صاحو الزلزلت الدنيا بخصومك ومادت بهم الارض) (١)

والغزالى شديد الحساسية مرهف الشعور ، عبقرى النفس ، لوذعى العقل ، لماح الخاطر فلا يمكن أن يفوته ، وهو فى مكانته من نظام الملك ، ملاحظة تعلق النظام بالطائفة وبذله العناية الفائقة فى خـدمتهم والغزالى اذا لاحظ تحرك ، واذا تحرك مضى قدمـــا ، لا يلتفت خلفـــه فهل يكون خاطر الغزالى تحرك نحو النظر فى شأن الصوفية وعلومهم وأحوالهم ومقـــاماتهم من يومئذ ، هو لابد ان يكون قد جارى النظام الحديث فى أمرهم يقول الاستاذ طه عبد الباقى سرور : (كان لنظام الملك فضل توجيه الغزالى الى التصوف والصوفية وقد كان شـــديد

(١) الغزالى للاستاذ طه عبد الباقى سرور

الخصومة لهم شديد الاسراف فى نقدهم ، فاندفع الغزالى كعادته يبحث كتبهم ويغشى مجالسهم ، بل ويشترك فى حلقات ذكرهم) .

ولكن الغزالى عاد الى التدريس فى مكان استاذه امام الحرمين بنيسابور ، وله فيها عهود فى الجدل والمناظرة أيام تلمذته على الامام ، ويظهر ان ذلك شغله عن مداومة النظر فى التصوف فتوقف الى حين ، أو على التحقيق صرفته عنه دواعى منصبه الذى تولاه ، وهو منصب خطير جدا ، وكان فيه مرموقا منظورا اليه ، والتصرف يطالبه بقطع علائقه بالدنيا ، وهو بهذا المنصب مغمور فيها ، فلم يتسع له المجال لمتابعة السير مع الصوفية ، ولكنا لا نعتقد ان الغزالى وهو لماح الخواطر، عظيم الروح ، عبقرى العقل ، تجرد بمنصب التدريس من كل أثر لصوفية المعسكر الذين عاشرهم أكثر من أربع سنوات ، واذا أضفنا هذا الاثر الى الاثر الاول التقليدى على يد شيخه الاول فى طفولتيه خلص لنا أن الصوفية داعبت عقل الغزالى وروحه منذ طفوليته ، وفى عنفوان شبابه ، ثم جدت به وأحاطته بشباكها فى رجوليته المستحكمة ، فجذبته اليهاجذبااضطراريا ، فكانمنها وكانتمنه ، وكانلها المدره والمفوهالبارع، والعقل المدافع ، والروح المشرق ، والقلب الشفاف ، فلما فرغ لها بسط طرائقها ، ومهد للناس أحوالها ، وأحكم لهم أصولها حتى استقامت على يده علما مؤصلا بقواعده وأصوله وآدابه وسلوكه .

واذا كان علم الكلام ، الفلسفة والتصوف ، لم يظهر أن واحدا منهما هو الذى حل رابطة التقليد عن الغزالى وهى علومه التى صال فيها وجال وصنف وكتب وأخذ ورد فما توجيه كلامه فى حل رابطة التقليد عنه فى سن الصبا .

علم الكلام والتصوف

اشتركا فى حل رابطة التقليد

عن الغزالى

والغزالى ينظر الى علم الكلام نظرين :

النظر الاول ، باعتباره علما يقوم على صحة النظر فى الادلة والبراهين العقلية التى تحقق قضاياه وتثبتها اثباتا يحميها من زعزعة المناقضات والمعارضات والشبه ـ يؤدى الى ضرب من اليقين العقلى فى حدود المقاييس العقلية المعتبرة فى النظر البرهانى عند من يسلمها .

وهذا النظر هو ما يقصده الغزالى بقوله عن هذا العلم : (فصادفته وافيا بمقصوده) وهو بهذا الاعتبار مؤد بمن حصله تحصيلا كاملا ، ونظر فيه نظرا استدلاليا الى أن تنحل عنه رابطة التقليد العقائدى بالنسبة للعقائد الحقة المأخوذة أولا بالتقليد النقلى عن الكتاب والسنه من نصوصهما القطعية ومن استنباط علماء الاسلام فيما لا اختلاف فيه ، وهذا لا يسمى فى نظرنا تقليدا بالمعنى المشهور بل هو أجل أنواع الاجتهاد .

وقد صرح الغزالى فى المنقذ من الضلال بأن مقصود هذا العلم (هو حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة هى الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والاخبار) .

والغزالى بلغ ذروة هذه المرتبة ، فكان اماما نظارا ، جادل عن عقيدة أهل السنة ودفع عنها شبه خصومها ومناقضاتهم ، دفعا جعل الناس يلوذون به باعتباره الحارس للعقيدة بقوة حجته ، وهذه مرتبة لا يبلغها الا من انحلت عنه رابطة التقليد فى العقائد الموروثة) .

وهو يقول عن أصحابها : (ولقد قام طائفة منهم بما أيدهم الله تعالى فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة .

وقد كان هو فى عصره أمام هذه الطائفة ، وعلى هذه الدعامة فى

الجدل والمناظرة قام مجده فى نيسابور وبغداد فى رحلته الاولى الى مجلس أستاذه امام الحرمين ، والى ولايته التدريس فى المدرسة النظامية فى بغداد ، فقد انتدب نفسه للدفاع عن عقيدة أهل السنة ، وندبته عبقريته الجدلية لمناهضة المعتزلة ، والتعليمية ، وهما أقوى الطوائف المعارضة فى عصره ، فأخمد جذوة بدعتهما وتعلق الناس به وبلغ من الصيت وعريض السمعة ما لم يبلغه أحد من أقرانه ·

ومن هنا يترجح عندنا ان علم الكلام بهذا النظر هو الذى حل رابطة التقليد عن الغزالى وبلغ من مبلغ الاجتهاد والتحقيق ، وان كان ابن السبكى يشكك فى ذلك فيقول ولم أر له مصنفا فى أصول الدين بعد شدة الفحص الا أن يكون قواعد العقائد ، وعقائد صغرى ، وأما كتاب مستقل على قاعدة المتكلمين فلم أره) ·

وهذا التشكيك لا يقوم على أساس من اليقين ، لان عدم رؤية الشيخ ابن السبكى رغم شدة تفحصه كتابا مستقلا فى أصول الدين على طريقة المتكلمين ، لا يدل على عدم الوجود ، والغزالى نفسه يصرح بأنه صنف فى علم الكلام بعد أن أحكمه على أستاذه أمام الحرمين مصنفات ويؤيد ذلك :

أولا : مواقف الغزالى التى تواترت أخبارها منذ لقى شيخه الجوينى ، وتلقى عنه مذهب الشافعى والاصليين والمنطق ، وبرع فى ذلك وأحكمه ، وانتهض فى حياة أستاذه للرد على أرباب المذاهب والنحل وأبطال دعاويهم ، فتهاووا أمام صولة منطقه وقوة عارضته وساطع حجته ·

ثانيا : على ما بثه فى مؤلفاته الاصولية والفلسفية والجدلية والعقائدية ، فانها كلها تنضح بالذب عن عقيدة أهل السنة ومدافعة خصومهم بلوازم مسلماتهم ، وهى الطريقة المفضلة عند الغزالى ، السائدة فى مؤلفاته حتى كتابه الذى أفرده للرد على الفلاسفة واظهار ضعف مقالاتهم وكشف ما فيها من خداع وتلبيس ، وهو الكتاب المعروف باسم (تهافت الفلاسفة) الذى عقده خصيصا لموضوعه ، فانه يجرى فيه معهم على نمط الالزام ولهذا ترى الفيلسوف ابن رشد يحمل عليه ويتهكم به فى كتابه (تهافت التهافت) الذى رد به على الغزالى ، ويرميه بالجهل بالفلسفة ، وناقشه باعتباره اشعريا أو متكلما بلسان الاشاعرة اللذين هم أهل السنة فى نظر علماء الكلام ، وهذا بين مبثوث فى ثنايا هذا الكتاب ·

ثالثا : للغزالى كتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » وهو من أعمق وأوسع ما كتب فى موضوعه ، ولا ندرى هل يعنيه ابن السبكى فى

ضمن الكتابين اللذين ذكرهما ، فيكون من قبيل تعدد الاسماء أو لم يطلع عليه وهذا بعيد ، أو أطلع عليه ولم يره كذلك ؟ والغزالى نفسه يقول في كتاب (جواهر القرآن) وهذا العلم — أى علم الكلام — قد شرحناه على طبقتين ، سمينا الطبقة القريبة منهما الرسالة القدسية « والطبقة التى فوقها الاقتصاد فى الاعتقاد » ٠

النظر الثانى :

ينظر الغزالى الى علم الكلام باعتباره علما لا يفى بمقصوده الخاص به فيما بينه وبين الله تعالى فيما يطلبه من اليقين فى ادراك الحقائق ادراكا تثبته الضرورة العقلية التى ينكشف معها المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ٠

هذا النظر بهذا الاعتبار هو الذى دفع الغزالى الى أن يقول عن علم الكلام بالنظر الاول : (وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ، فلم يكن الكلام أى بالنظر الاول — فى حقى كافيا ، ولا لدائى شافيا) ٠

بيد أن أبا حامد رحمه الله يعترف ان هذا نمط فى تطلب الحقيقة خاص به ، وبمن كان على غراره ، ويصرح بأن علم الكلام بالنظر الاول قد يكون نافعا لغيره محققا لغرضه (فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به مريض آخر) ٠

والغزالى يرى فى كتابه (ميزان العمل) أن لكل كامل ثلاثة مذاهب

أحدها — مذهب الآباء والاجداد والبلد الذى فيه النشوء والمعلم الذى أخذ عنه ٠

ثانيها — مذهب الارشاد والتعليم لمن جاء مستفيدا مسترشدا ٠

ثالثها — ما يعتقده الرجل سرا بينه وبين الله عز وجل ، لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره الا مع من هو شريكه فى الاطلاع على ما اطلع أو بلغ رتبة الاطلاع عليه ويفهمه ، وذلك بأن يكون المسترشد ذكيا ولم يكن قد رسخ فى نفسه اعتقاد موروث نشأ عليه وعلى التعصب له، ولم يكن قد انصبغ قلبه انصباغا لا يمكن محوه) ٠

فعلم الكلام بالنسبة للمذهبين الاولين كاف بمقصودهما محقق للغرض المطلوب لهما ، وبالنسبة للمذهب الثالث الخاص باعتقاد الشخص فيما بينه وبين الله تعالى قد يحقق الغرض عند بعض الناس ، ويكفى لمقصوده ، وما دام هذا المذهب خاصا سريا لا يبوح به صاحبه

الا لمن كان على شاكلته حسا ومعنى فلا يحتاج للمناضلة عنه والجدل فيه ، فهو لا حاجة به الى علم الكلام ولا الى أى لون من البراهين الكلامية والادلة المنطقية التى يقصد بها حماية العقيدة من شبه المبتدعة وشغب المنحرفين ·

ومن ثم يخلص للبحث :

أولا : ان علم الكلام هو الذى حل عن الغزالى رابطة التقليد العام فى العقيدة فى سن قريبة عهد بسن الصبا باعتباره مرشدا ومعلما ، ومناضلا لحماية عقيدة العامة من شبه المبطلين وأضاليل الفرق ، لانه العلم الذى أحكمه وتضلع فيه على قيمة عبقرى المناظرين فى عصره أستاذه أمام الحرمين ، وكان اذ ذاك فى سن يصدق عليها انها قريبة عهد بسن الصبا ·

ثانيا : ان التصوف هو الذى حل عن الغزالى رابطة التقليد الخاصة به التى كان يحسها من نفسه ويريد أن يقتلعها بيقين لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم بحيث لو تحداه من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا فى معلومه ·

وهذه مرتبة حصل عليها الغزالى ـ كما يقول فى كتابه (المنقذ) ـ بعد أن تخلخلت فى نظره دعائم المحسوسات والعقليات فى توصيلها له الى ذلك اليقين الخاص الذى يطلبه فى ادراكه للحقائق ، وبعد أن اضطربت أعصابه وتوقف عن النظر مدة كان فيها ـ كما يقول ـ على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ·

وفى ذلك يقول فى (المنقذ من الضلال) : (فتحرك باطنى الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين والتمييز بين هذه التقليدات وأوايلها تلقينات وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت فى نفسى أولا انما مطلوبى العلم بحقائق الامور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى ان العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ولايقارنه امكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وانكارا فانى اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل انى أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه لم اشك بسببه فى معرفتى ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه فاما الشك فيما علمته فلا ، ثم علمت ان كل ما لا أعلم على هذا الوجه

ولا اتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني .

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة الا في الحسيات والضروريات فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الجليات وهي الحسيات والضروريات فلا بد من أحكامها أولا لاتيقن ان ثقتي بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليديات ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غالة له فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها فأنتهى بي طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات أيضا ، وأخذ يتسع الشك فيها ويقول من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حساسة البصر وهي تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف انه يتحرك وانه لم يتحرك بغتة ودفعة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار ثم الادلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الارض في المقدار ، هذا وأمثاله في المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكام ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته ، فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الاوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والاثبات لايجتمعان في الشيء الواحد والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما واجبا محالا ، فقالت المحسوسات بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بي فجاء حاكم العقل فكذبني ولولا ان جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحسي في حكمه وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا وأيدت اشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا تشك في تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها فاذا أوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، أو لعل تلك الحالة ما يدعيها الصوفية

انها حالتهم اذ يزعمون انهم يشاهدون فى أحوالهم التى اذا غاصوا فى انفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات ولعل تلك الحالة هى الموت) .

وحصول الغزالى على هذه المرتبة من اليقين التى يدرك بها الحقائق ادراكا يقينا لا شك فيه لم يكن - كما يقول - عن نظم دليل منطقى ولا ترتيب كلام بقياس برهانى ، وانمـــا كان بنور قذفه الله فى قلبه فكان ذلك النور مفتاح اكثر معارفه وعلومه كما هو شأنه مع أربابه .

وهذا امر لا يجدى فيه النقاش والبحث ، لانه وراء النقاش والبحث، فمن انكره وطالب باقامة الحجة العقلية على صحته ووجوده ، قيل له أن العقل ليس هو الباب الوحيد لادراك الحقائق ، ومن قبله وســلمه فهو مقلد لاهله أو ذائق مذاقهم وشارب من مشربهم ، والغزالى رضى الله عنه يقول (فمن ظن أن الكشف موقوف على الادلة المجردة فقدضيق رحمةالله الواسعة .

اصل التصرف وأطواره

في الاسلام

أكثر الناس قديما وحديثا عن « التصرف » وحاول الباحثون من القدامى والمحدثين ان يتعرفوا على حقيقة هذا اللفظ في أوضـــاع اللغة ــ ومقاييسها الاصطلاحية ،فلم تسعفهم أصولها الوضعية وقواعدها القياسية، وتفريعاتها الاشتقاقية بأصل يمكن الاعتماد عليه في صحة نســب هذا اللفظ الى أبوابها ٠

وفي ذلك يقول أبو القاسم القشيرى في رسالته : (هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل «صوفى» ، وللجماعة (صوفية) ، ومن يتوصل الى ذلك يقال له «متصوف» وللجماعة «متصــوفة» وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قد يأس ، لا اشتقاق ، والا ظهرفيه انه كاللقب ٠

فأما قول من قال : انه من «الصوف» ، وتصوف اذا لبس الصوف، كما يقول : تقمص اذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف ٠

ومن قال : انهم منسوبون الى صفة مسجد رسول اللهصلى الله عليه وسلم ، فالنسبة الى الصفة لا تجيء على نحو الصوفى ٠

ومن قال : انه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة ٠

وقول من قال : انه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الاول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة الى الصف ٠

ثم ان هذه الطائفة اشهر من أن يحتاج في تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق ٠.

ونحن نميل الى انه لقبمنقولتعريبا من لغة غير عربية،فهوحادثمع حدوث الالفاظ الدخيلة التى فدت على العـــربية مع الافكار والمعـــانى والمذاهب الاراء في القرن الثانى من الهجرة ، لم يعرف معرفة لقبية لطائفه من الناس بعينها قبل ذلك في تاريخ الاسلام ، وقد يكون عرضلهشيء من التصرف اللسانى لصقله تخفيفا كما عرض لكثير من الالفاظ الوافدة ٠

قال الامام أبو القاسم القشيرى : (ان المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية «علم» سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم : الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة التابعين ، ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعده عناية بأمر الدين « الزهاد والعبـاد »ثم ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا ، فانفرد خواص اهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ؛ الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم «التصوف» واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الاكابر قبل المائتين من الهجرة ، انتهى كلام القشيرى ٠

ونحن لا نستبعد ان يكون للاحداث السياسية التى طمت دواهيها فى اواخر العصر الاول والعصر الثانى ، وكذلك الاحداث الاجتماعية التى حولت المجتمع الاسلامى عن وجهته الاولى فى الجرى مع طبيـعة الدعوة الاسلامية على منهاج الفطرة ــ الانسانية بعيدة عن التفلسف والتعقيدات الفكرية ــ اثر كبير فى تلقيب الفرق وتسمياتها ، واختصاص طائفة معينه من المسلمين بهذه التسمية «التصوف» ٠

وقد كانت السمة الغالبة على هذه الطائفة التى تمييزت بها على غيرها من الطوائف فى عنوانها الظاهر هى « الحزن » لشعورها بظلم فادح ، واضطهاد جارح ، ومطاردة قاهرة ، فزهدت فى رغائب الدنيا وزخارفها ، وسائر مظاهرها ، واعتزلت الحياة ، واستوحشت من محافلها ، وأنست الى محاريب الخلوات متعبدة زاهدة ، متقشفة أشد التقشف فرارا الى الله تعالى بدينها ٠

واذا اتضح هذا ــ وهو عندنا صحيح ــ كانت بقية السـلف من آل البيت النبوى وأنصارهم من ذوى الألباب الراسخين فى العلم والادب الشرعى من أهل الصفاء والاخـلاص والطهر والتقى هم الطليعة لهؤلاء الزهاد العباد ، وتبعهم فى سمتهم من كان صغوه الى طريقتهم فى الزهد والعبادة ، ثم انشعبت هذه الطليعة الى شعب متعددة ، وافترقت فرقا مختلفة ، اتسمت كل فرقة منها بسمة نزعت بها الى وصف خاص مميز به تسمت وبلقبه عرفت ، يعمها كلهـا التقشف والزهادة فى ترف الدنيا ، وبقى اسم « التصـوف » لخيرهم طائفة ، وأمثلهم فرقة ، وهم الذين أقاموا على عمود الاسلام ، متمسكين بظواهر شرائعه عاملين ببواطن حكمها وأسرارها ، وعنوانهم الاكبر حب آل البيت حبا لا يخرج بهم عن جادة الحق والهدى ، وكانوا بذلك هم خـلاصة الفرقة الناجية الذين عرفوا فى تاريخ الاسلام بأهل السنة ٠

وقد كان أوائل الفرق الاسلامية قبل التشعبات المتكثرة باغراء

السياسة من هذه الطليعة الزاهدة المتعبدة ، ففى المعتزلة الاوائل عمرو ابن عبيد ، كان لا نظير له يساميه في الزهد والتجافى عن الدنيا ، وكان فى أوائل الخوارج أبو حمزة الشارى وهو نسيج وحده فى التعبد وقهر النفس ٠

فلما غمرت السياسة المجتمع الاسلامى وساقته بعصاها انزلقت الفرق الى مزالق الدنيا ، ولم يبق على عهد الزهادة سمة عامة ، سوى عباد أهل السنة وشيعة آل البيت ، وسوى الخوارج ممن فارق الطليعة فى بعض الاصول أو الفروع ٠

فأما الخوارج فقد لزمهم اسم الخروج من الطليعة وكانوا طليعتها زهدا أو تعبدا وتجافيا عن الدنيا ، لانهم جهلوا سنة الله فى شرائعه ، ففروا بدينهم من الله جهالة على الله ، وتعاليا بالزهد والتعبد ، وقد انبأنا بخبرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث رائدهم وقائد ضلالتهم ذى الثدية الذى جهل على نبوة الرسالة الخالدة الخاتمة غرورا بتعمق التعبد ، كأنما يتاجر الله مديانا بعبادته ، فيدل بها ادلال الجفاة المغرورين بالله ، المارقين من الدين من باب « خضراء الدمن » مروق السهم من الرمية ٠ وهم لا يشعرون ٠

ولما توافدت مواكب الامم بميراثها من العقائد والآراء الناشئة فى وثنيات الماضى السحيق على ساحة الاسلام بعد ذيوع الدعوة الاسلامية لتدخل فيه طائعة راغبة أو كارهة كائدة وجدت هذه المواكب الدخيلة نفسها بين المجتمع الاسلامى فى لجة من البشر تموج بأجناس الانسانية وعقائدها وأخلاقها وعاداتها ، وهى تتدافع وتتزاحم وتتواثب ، يسوقها — أحيانا — ميراث العقائد المترسب فى حنايا مشاعرها ، وتسوقها — فى أحيان أخرى — السياسة الظالمة الى مطامعها متسترة بجلباب الدين ٠

واذا بالضعفاء أهل المسكنة يدفعون بالمناكب الى الوراء لا يستطيعون دفاعا ولا مواكبة وينظرون حولهم فاذا بأخوة لهم عاكفون على أحلاس الاحزان ، يروضهم حال الامة وهى تهوى مع السياسة المترفة ومع ميراث الاباطيل فى العقائد الوثنية ، فلا يملكون الا الانطواء على أنفسهم يتنفسون زفيرا ، قنعوا من الدنيا بالكفاف أو بما هو دون الكفاف ، وفرغوا أنفسهم أو فرغتهم الحياة لانفسهم فاستراحوا وأراحوا ، لانهم وزنوا الدنيا التى فرت منهم أو فروا منها بميزان الحق ، فرأوها كظل شجرة لا يزال يتنقل ثم يمحى ، فعرفوا ان طالب الدنيا فاقدها ، فأعرضوا عنها بقلوبهم أعراض العليم بحقيقتها الذى يراها مع أهلها كمصيدة الفئران المزودة بطعم شهى ، ان ادركت الدنيا أحدا منهم أو أدركها أعرض عنها ، فان تعلقت به أخذها فقال بها هكذا وهكذا فى

سبيل الخير ، يسعد بها المحرومين ، ويرحم بها المعذبين ، وان لم تدركه ولا هو أدركها فى سيره الى الله ثم يبخع نفسه تأسفا على فواتها ، بل لا يمد اليها نظره ليعرف أين مراحها ومغداها أولئك هم الصـــالحون أهل الصفاء والاخلاص والتقى ، أنسوا بالله فأفاض عليهم من بحـــار ايامه واردات الاشراق ، وانفتحت لهم من ينابيع العبودية عيون المعـــرفة فكانوا شهودا لجلال الله وكبريائه ، وهم عن دنيا الناس والاشـــياء غائبون ٠

يقول أبو سعيد الخراز فى كتابه « الصدق » : الزاهد فى الدنيا حقا لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح بها اذا أقبلت ، ولا يحزن عليها اذا أدبرت ٠ ويقول النورى نعت الصوفى السكون عند العدم والايثار عنـــد الوجود ٠

اما الذين تزهدوا عجزا عن التزاحم على الدنيا ، وتعبدوا يأسا من نيلها فأولئك الذين بخعتهم الدنيا لانهم وزنوها بميزان عجزهم ، فقنعوا بزيادها اليأس ، وتعبد العجز ، وفرغوا أنفسهم عن تطلابها فأراحوا ولم يستريحوا وشغلت قلوبهم بوردات كلمع البرق فى أديم السراب ، لا تستقر ولا تنحسر ، تخالط عليهم النور بالظلام كعبث مردة — الشياطين فى أودية الخراب ، لا يدرون مامعهم شىء ان كان معهم من الاشياء شىء ولا يزالون يسبحون فى بحار السراب حتى تتخطفهم شياطين الاباطيل ، وتقذف بهم فى أودية الضلال فهم مرة حلوليون ، وأخـــرى اتحاديون ، وثالثة اباحيون ، يعبدون ما ينحتون بأصابع الاضـــــاليل ، ويدعوان مايتمثلون بأخيلة الممرورين ، وينطقون بما يخيلون من شطمات المبرسمين

والزهد الصادق فى الدنيا بعروق القلب عنها مع القيام بحق شرائع الله تعالى مخلصا له الدين هو الميزان الصادق فى شرعة الاسلام لوزن « التصوف » الصادق ، بل هو كل ماكان معروفا فى صدر الاسلام من عمل زوى تحت ماسمى فيما بعد (تصوفا) صادقا ، وهو ماكان يعرف بالمعرفة ، لان العارف بالله لا يشغله عن الله شىء لاطلب الدنيـــا ولا — الهرب منها ، يقول يوسف بن على فى رواية السلمى (١) ، لايكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عز وجل طرفة عين ٠

ويقول أبو عمر الانطاكى سمعت رجلا يقول للجنيد : من أهل المعرفة اقوام يقولون : ان ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : ان هذا قول قوم تكلموا باسقاط الاعمال ، وهو عنـــدى عظيم ، والذى

(١) الرسالة القشيرية

يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فان العارفين بالله أخذوا الاعمال عن الله تعالى والى الله تعالى رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرذرة (١)

والاصل فى ذلك حديث حارثة • وهو مروى من طريق صحيح قال النبى صلى الله عليه وسلم لحارثة : (كيف أصبحت يا حارثة) ؟

قال : مؤمنا حقا يا رسول الله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: (وما حقيقة ايمانك ؟) •

قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى ، وكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتناعمون ، والى أهل النار يتعاونون فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (مؤمن حقا نور الله قلبه عرفت فالزم) •

ويقول أبو سعيد الخراز فى كتاب « الصدق » : وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، وكانوا عبيدا عقلاء عن الله عز وجل ، أكياسا محبين ، سمعوا الله جل ذكره نعم الدنيا ووضع من قدرها ولم يرضها دارا لأوليائه ، استحيوا من الله عز وجل أن يراهم راكنين الى شىء ذمه ولم يرضه وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضا لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته كرما ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

ويروى أبو سعيد فى معنى حديث حارثه عن عمر بن عبد العزيز أنه نظر الى شاب مصفر ، فقال : « ما هذا الصفار يا غلام ؟ قال : أسقام وأمراض ! قال : لتخبرنى !

قال : يا أمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر الى أهل الجنه فى الجنة يتزاورون ، وأهل النار فى النار يتعاوون •

فقال له عمر بن عبد العزيز : أنى لك هذا يا غلام ؟

قال الغلام : اتق الله يفرغ عليك العلم افراغا •

وقد أورد أبو سعيد رضى الله عنه فى كتابه اشكالا يورده أهل البطالة والركون الى الدنيا والاستغراق فى حبها وجمعها ، وأجاب أحسن

---

(١) الرسالة القشيرية .

اجابة ، وتلخيص ما قاله : فكيف ملك الانبياء عليهم السلام الاموال والضياع .. والصالحون من بعدهم ؟؟

فقال : هذه مسألة كبيرة ، وفيها كثير .

اعلم أن الانبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم رضى الله عنهم امناء الله تعالى فى أرضه على دينه ، وعلى أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم .. فوافقوه فى محبته .. ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الالباء عن القابلين عن الله والحافظين لوصيته ... فسمعوا الله تعالى يقول : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ... وقال : (لله ما فى السموات وما فى الارض) فايقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما خولهم وملكهم فانما هو له ، غير انهم فى دار اختيار وبلوى ...

فمن ملك من أهل العمل عن الله تعالى وأهل الصدق شيئا من الدنيا فهو معتقد أن الشيء لله عز وجل لا له ، الا هو من طريق حق ما خوله الله تعالى وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه ...

فالقوم كانوا خارجين من ملكهم فى ملكهم ناعمين بذكر الله وعبادته غير ساكنين الى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده ان فقدوه ، ولايفرحون بالشيء ولا يحتاجون الى العلاج والمجاهدة فى اخراجه ، ... وهذا النبى صلى الله عليه وسلم يأتيه ملك من السماء لم ينزل قط قبل ذلك فيقول له : هذه مفاتيح خزائن الارض تسير معك ذهبا وفضة .. فلم يختر النبى صلى الله عليه وسلم وقال أجوع مرة وأشبع مرة .

وهذا أبو بكر – حين حث النبى صلى الله عليه وسلم على الصدقة – جاء بماله كله ، لانه كان أقوى القوم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (ما خلفت لعيالك ؟) قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد ، ثم جاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك ؟ قال : نصف مالى ، ولله عندى مزيد .

قلت : فانظر الى قول الصديق الاكبر وهو فى مقام الجمع بين الفناء عن نفسه وماله ، والبقاء بالنسبة لصدق رجائه فى الله تعالى : (ولى عند الله مزيد) فهو مشغول بالله غنى بما عند الله . ثم انظر الى قول الفاروق وهو فى مقام الصدق مع الله : (ولله عندى مزيد) والفرق بين الشيخين هو فرق ما بين المقامين .

قال أبو سعيد : ثم عثمان يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج اليه ويحفر بئر رومه .

أفلا ترى أن القوم انما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟؟ ... وهذا

أبو بكر رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها لم يرفع بها رأسا. وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها كان طعامه الخبز والزيت ، وكان فى ثوبه بضع عشرة رقعه بعضها من أدم وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر ، وهذا عثمان رضى الله عنه كان كأنه واحد من عبيده فى اللباس والزى . ولقد روى عنه أنه رؤى خارجا من بستان له وعلى عنقه حزمة من حطب فقيل له فى ذلك ؟ فقال : أردت أن أنظر نفسى هل تأبى ؟

وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الخلافة قد اشترى ازارا بأربعة دراهم ، واشترى قميصا بخمسة دراهم ، فكان فى كمه طول فتقدم الى خراز فأخذ الشفرة فقطع الكم من عند أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنة ويسرة .

وهذا الزبير رضى الله عنه يخلف حين مات من الدين مائتى ألف أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل ، وهذا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يعطى حلى أهله لمن سأله .

فهذا يدل على أن القوم كانوا كما قال الله تعالى حين أمرهم فقال (انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

هذا التصوير الذى صورنا به الجو العام فى سيرة المسلمين الاولين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من زهاد الصدر الاول ومتعبديهم من العزوف عن الدنيا والصدق مع الله فى معرفة جلال كبريائه ، والقيام بحق شكره بالتعبد له فى سائر حركاتهم وسكناتهم على قدم الاخلاص ، والذى صورنا به زهادة اليائسين وتعبد العاجزين عن المنافسه على الدنيا وتسلط شياطين الاهواء على عقولهم وأفئدتهم حتى أخرجتهم الى وثنيات مظلمة زعموها فتوحات مشرقة هو — فى نظرنا — واقع ما يصح أن يطلق عليه اسم « التصوف فى تاريخ الاسلام » لان اللون الاول منه وهو لون الزهادة الصادقة والتعبد الخالص ،واليقين المصفى من حظوظ النفس هو الذى يعرفه دين الاسلام وتعرفه شرائعه ، أما اللون الثانى وهو لون الزهادة اليائسة والتعبد القاتم فهو اللون الوافد من خارج الاسلام مع العقائد الوثنية التى حملتها طوائف الزأحفين الى ساحة الاسلام بقلوب مليئة بالاباطيل ، وهذا كله تعرفه طبيعة الاسلام ، ولا تقره ولا ترضاه مهما تأول المتأولون .

فالتصوف فى صدر الاسلام — على غربة هذا اللفظ عن الاسلام واللغة العربية — كان عملا محضا ، يقوم على الخلاص التعبد لله تعالى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا ، وهذه الدنيا عندهم دين ، لانهم

يأتون ما يأتون منها وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون ، لا يسارعون الا الى الخيرات وهم لها سابقون ، ويقوم على الشفقه على خلق الله والرحمة لهم ، يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان امرأة بغيا رحمت كلبا وجدته يلهث من شدة العطش ، فشقت خمارها لترفع له الماء من البئر فسقته فاطلع الله عليها فغفر لها ، ويسمعون منه صلى الله عليه وسلم ان امرأة دخلت النار فى هرة ، حبستها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الارض .

ويرونه صلى الله عليه وسلم يحلم على اعرابى جاءه يسأله شيئا من متاع الدنيا فيغلظ الاعرابى القول للنبى صلى الله عليه وسلم ، فيهم بعض الصحابة ليبطش به ، واذا بالنبى صلى الله عليه وسلم ينهنه صاحبه ذا العزيمة الباطشة ثم يقوم صلى الله عليه وسلم الى بيته ويزيد فى الاحسان الى الاعرابى حتى يبدل غلظته لينا ولطفا ، وجفوته سماحة ودعة ، ثم يقول له : أرضيت ؟ فيقول الاعرابى : نعم رضيت ، فجزاك الله من أخ وعشيرة خيرا ، فيقول له النبى صلى الله عليه وسلم : انك قلت ما قلت ، وفى نفس اصحابى عليك شىء ، فاخرج اليهم ؛ وقل أمامهم ما تقول ، ويخرج الاعرابى راضيا ، ويعرف هذا الرضا فى وجهه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسكن نفوسهم ، ويرشدهم النبى صلى الله عليه وسلم الى ثمرة التربية العمليه للنفوس البشرية ، فيقول لهم : لو تركتكم وما كنتم تريدون به لدخل النار .

فهذا درس عملى ، قل فيه الكلام وكثر فيه العمل ، وكان حديث القلوب فيها أبلغ من براعة الالسنة ، حيث ملأها رحمة وسماحة وغرس فيها حب الجود والبذل وزينها بالحلم ، وجمع لها مكارم الاخلاق .

درس يجعل النفس الانسانية مرآة صادقة لتلقى صورة الخير والبر والشفقة على عباد الله ، لانهم عباد الله .

درس يتعلم منه حاضروه فى مدرسة النبوة والذين يسمعونه بآذان قلوبهم ممن يقتفى آثارهم كيف يقوى على دوافع بشريته ، ويرتفع فوق مستوى دواعى غرائزه ، فيحاسب نفسه على الخطرات والهواجس وفلتات الكلمات ، فضلا عن كبير الاعمال ، وعظيم الاقوال ؛ وذلك ان محاسبة النفس هى الدعامة الاولى فى بناء الاخلاص ، والاخلاص لباب العبودية ، والعبودية هى الباب الى حضرة القدس والشهود ، يقول أبو سعيد الحسن البصرى : ان المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله عز وجل ، ومن دقيق المحاسبة للنفس فيما يبدو أمرا صغيرا عند الذين لا يلاحظون أنفاسهم لله تعالى ، وكبيرا عظيما عند من ادرعوا بالتقى وذل العبودية ما رواه المحاسبى فى « الرعاية » من طريق أبى داود الطيالسى عن عبد

العزيز الماجشون عن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها : ان أبا بكر رضى الله عنه قال لها عند الموت : ما أحد من النـــاس أحب الى من عمر ، ثم قال لها : كيف قلت ؟ قالت : قلت : ما أحد من الناس أحـــب الى من عمر ، فقال : لا ؛ ما أحد من الناس أعـــز على من عمـــر • قال المحاسبى : فتدبر كلمة قالها ، ثم أبدلها بكلمة غيرها •

وبهذه المحاسبة للنفس يكون وقوفهـــا أبدا على قدم الاخلاص لله فى العبودية فتطهر من أدران الرذائل الحيوانية ، وتصفو من كدرات الظلمات المادية ، وتتحرر من رق الشهوات والرغائب ، وتخلص من قيود الانانيـــه منطلقة فى بقائها الانسانى الكامل الى آفاق الاشراق الروحى ، وتخضـــع لها جوارح الجسم طواعية منسجمة مع توجهات القلب بكليته الى الله تعالى انسجاما يستوى فيه ظاهر الانسان وباطنه فى سائر حركاته ، فيحبـــه الله حبا يسخره به لمرضاته ، فلا يراه الا حيث يحب ويرضى ، ويحب العبد الله حبا لايرى معه فى الوجود غيره ، واذا أحب الله تعالى عبدا كان له سمعا يسمع به وبصرا يبصر به ، ويدا يبطش بها ، وذلك نهاية مايطلبه العارفون، وهو الذى يدندن حوله العابدون السائحون ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء •

أولئك هم الادلاء على الله لا يرجون أحدا فى معصية الله ، ولا يقنطون أحدا من رحمته يرضون أبدا بالصبر على البأساء والضراء ، والرضـــا بالقضاء ، والشكر على النعماء ؛ يحببون الله تعالى الى العباد ، بذكرهم اياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه علماء بما يحب ويكره، ورعين فى البداع والاهواء ، تاركين التعمق والاغلاء ، مبغضين للجـــدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والاذى ، مخالفين لاهوائهم ، محاسبين لانفسهم ،، مالكين لجوارحهم ورعين فى مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الاقـــوات ، متقللين من المباح ؛ زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحســـاب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بشهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكـــل امرىء منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب •.

ذلك أورثهم ، الحزن الدائم ، والهم المضـــنى ؛ فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها (١) •

على هذا الصراط كان أئمة الهدى من أعلام مدرسة النبوة المحمدية وأتباعهم الذين لم تشوش البدع الضالة عقائدهم ، ولم تدنس الاهـــواء والشهوات أعمالهم •

(١) من كلام الحارث المحاسبى نقلناه من مقدمة كتاب الرعاية التى كتبهما وراجعاه الاستاذان الفاضلان عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور

مضوا طاهرين مطهرين على السمت الاقوم ، والنهج الاعدل الاحكم لم تملهم الدنيا عن سبيل العبودية لله ، مخلصين له الدين ، ولم يميلوا معها اعتزاز بزخارفها ، تركوها بشهواتها ولذائدها بجسومهم وأرواحهم في غير رضا الله ، وأقبلوا عليها بجدها وشظفها بقلوبهم وعقولهم في رضا الله ، واتخذوها مطيتهم الى ساحة الاقبال على الله ، عقلوا عن الله بفضله أوامره ، وفقوا بتوفيقه نواهيه ، جعلوا الامر والنهى سياج اعمالهم ، بهما يتحركون ويسكنون ، لا يراهم الله حيث نهاهم ، ولا يفقدهم حيث أمرهم ، علماء بالله ، يخوضون بحار العلوم والمعرفة تفقها فى دين الله ، واستطلاعا لجلال الله فى صنائعه ، يجاهدون أعداء الله ليردوهم الى حظيرة حبه ، شفقة عليهم من سخط الله وغضبه ، ورحمة بهم ان ينالهم أليم عقابه يسكنون تحت وطأة الاقدار رضا بقضاء الله ، يقومون فى حركاتهم بنعمة الله ، ويقعدون فى خلواتهم لذكر الله ، قلوبهم معلقة بوشائج الرجاء فى رحمة الله ، والخشية من مكر الله ، يخافون ربهم من فوقهم ، فلا تطمئن أنفسهم الى عمل من الاعمال ، يظمئون نهارهم ويسهرون ليلهم ، توابين أوابين ، قوامين بالقسط ، شهداء الله على أنفسهم بالقصور والتقصير فى جنب الله ، يسمعون كلام الله ، وهم يبكون شوقا الى ماطالعوا من غيب الله فيما أعده من جزاء الرضا والرضوان لاحبابه وأوليائه ، وترتعد مفاصلهم فرقا من سخط الله ، تفيض أعينهم بالدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون فى سبيل الله ، عكوف فى مجالسهم على محبة الله ، مصفرة وجوههم ، نحيلة أجسامهم ، يابسة جلودهم ، يراهم الجاهل بالله عن غفلة منهم فيظنهم فى سياق الموت من خشية الله ، لا يطفىء نور يقينهم نور علمهم مرهفة اسماعهم الى نداء الحق فاذا سمعوه انتفضوا كأنهم أرواح منطلقة من سجنها ، يحسبهم الغافل عن حقيقتهم اذا رآهم فى انتفاضتهم جنة تتواثب فى ملاعبها ، اذا استنفروا جهادا لاعلاء كلمة الحق ، نفروا باذلين أنفسهم لله كأنهم أسد الشرى تدفع عن عرنها ، وتذود عن أشبالها ، أشجع الناس قلبا ، وأسخاهم لله نفسا ، فرحين بنداء ربهم ، يقتلون ويقتلون ايقانا بوعد الله ، مستبشرين بما وفوا بعهد الله ، تدور وجوههم اشراقا اذا استشهدوا فى حب الله كالقمر فى تمامه ، يشرق فى سماء صافية الاديم ، يقينهم محصن بالعلم ، وعلمهم معتمد على اليقين ، ايمانهم شهود ، ومنتهى معرفتهم بالله هو عجزهم عن الوصول الى حقيقة وراء – آيات الله ، يقول الصديق الأكبر فى تصوير نهاية العارفين (العجز عن درك الإدراك إدراك) انتزاعا من فيض اشراق النبوة فى أدب العبودية (لا تحصى ثناء عيلك ، انت كما اثنيت على نفسك) .

وتفسير هذا : ان أرقى مقامات القرب هو مقام العبودية ، وهو

خصيصة الانبياء فى اضـــــافة التخصيص جملة ، لسائر الانبياء ، وتفصيلا مميزا لاولى العزم من الرسل ، ومنتهى مقام العبودية هـو حجاب الادب الذى لا يهتك ستره بالتطلع الى سبحات الجلال الا مطرود محروم ٠

وبهذا الادب الاشم الاعظم اثنى الله تعالى على حبيبه سيد الانبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بعد الثناء عليه بتخصيصه باضافة العبودية بعد الثناء على نفسه بتسبيح ذاته وتقديس صــــــفاته فى قوله (سبحان الذى اسرى بعبده) وكان لذلك الثناء الاشم فى مقام (قــــاب قوسين أو ادنى) بقوله عزشانه (مازال البصر وما طغى) ٠

ومن ثم كان ابو بكر الصديق رضى الله عنه هو الصديق الاكبر ، والتلميذ الاول الامام المقربين وسيد العابدين ، لان الله تعالى جمع له ماتفرق من معانى العبودية وأسرار القرب فى سير العارفين العابدين المقربين من خاصةالمؤمنين ، فهوالمثل الاعلىلهمفى حياتهوأعماله ، وسرهواعلانه ، كما جمع الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه سلم جميع ماتفرق من نعوت العبودية الخاصة فى جميع الانبياء والمرسلين ٠

ويتفاوت حظ العابدين فى أدب العبودية ومراتبها بتفاوتدرجات القرب من منبع الفيض فى العلم بالله تعالى ، ولما كان أبو بكر رضى الله عنه أقربهم الى سيدهم صلى الله عليه وسلم كان حظه منها الغـاية التى يقف دون ادراكها كل عابد من خاصة المؤمنين ٠

وتأتى بعد ذلك درجات الصحابة اجمعين متتابعة تتابع مراتبهم من القرب الى رسول الله صلى عليه وسلم بما ناله كل واحـد منهم من نصيب فى العلم بالله تعالى ، وليس احد منهم رضى الله عنهم الا وله من ذلك حظ يفوق حظ كل ولى لله جاء بعدهم لاختصاصهم باشراق أرواحهم برشحات انوار النبوة ، واعظمهم فى نفحات القرب الراشدونعلىمراتبهم فى الخلافة ، وهى أجل مراتب الولاية والعبودية ٠

ولهذا كانت سيرتهم فى مجــال حياتهم وســــائر أعمالهم ، وكافة حركاتهم وسكناتهم فيما يأتون ويذرون هى الميزان لوزن حقيقة «التصوف» الذى يعرفه الاسلام — بحقيقته العملية التى تمثلت فى الزهد الواجـد والورع الصادق ، والتعبد الكامل ، والاخلاص الباعثعلىالبر والاحسان لكافة الخلق ، لانهم عيال الله ، واحبهم اليه أكثرهم نفعا لعياله ٠

وسيرة الصحابة رضى الله عنهم وخاصة الراشدين مدد من سـيرة رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، فهم المعبر الى اشراق انواره من أراد العبور الى منازل القرب ، والطرق كلها الى رسول الله صلى الله عليهوسلم

مسدودة الا طريق اصحابه الناقلين الى الناس سيرته بسمتهم واعمالهم كما ان الطرق كلها الى الله تعالى مسدودة الا طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرته وسمته وسائر احواله وافعاله وأقواله .

فالتصوف الذى يعرفه الاسلام عمل تطبيقى فى واقع الحياة لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة خاصة اصحابه ، وقد أخذه عنهم بحقيقته — لا باسمه ولفظه — العابدون من تلاميذهم أهل المعرفة والعلم بالله ثم تلقاه مثلا حية من العمل فى سيرة هؤلاء تلاميذهم الذين جاءوا من بعدهم من أهل التقى واليقين ، وكان هؤلاء اولئك على نهج أستاذهم ومربيهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعملون كثيرا ، ولا يتكلمون الا قليلا ، فلم يعرفوا للتصوف علما خاصا يميزه عن علمهم بالكتاب والسنة ، ولم يعرفوا له نظاما خاصا يميزه عن نظامهم فى حياتهم وسيرتهم التى عليها درجوا بين صفوف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرفوا له طائفة خاصة تمتاز باوصاف الا توجد فى كافة صالحى المؤمنين ، يكره أحدهم ان يتكثر بالناس يتبعونه ، ويمشون خلفه خشية العجب على نفسه ، روى ان محمد بن سيرين كان اذا خرج الى مكان يقصده وأراد بعض اصحابه ومريديه أن يصحبه يقول له : ان لم يكن لك حاجة فارجع .

ويكره أحدهم الا يجد السعى فى الحصول على قوته وقوت عياله بل فى الحصول على أكثر من ذلك صيانة لدينه وصلة لرحمه ، روى ان سعيد بن المسيب كان يقول : لاخيرة فيمن لايجمع الدنيا يصون بها دينه وجسمه ، ويصل بها رحمه وكان رضى الله عنه يتجر فى الزيت ، ولا يقبل صلات الخلفاء والولاة .

ويكره أحدهم ان يتميز على سائر المسلمين فى زيه وشكله ومكانه فى مجلسه ، ويكره أحدهم ان يرى قعيد المساجد وغيره يسعى عليه يقوته ويمونه لا يدرى من اين جاءه هذا القوت ، يقول ابراهيم بن ادهم : (اطب مطعمك ولا عليك ان تقوم الليل ولا تصوم النهار) وابن ادهم هذا كان من أبناء الملوك ، لاحظته عيون العناية الالهية ، فخرج عن ملك الدنيا الى الله تعالى يطلبه فى عز طاعته ، وكان يأكل من كسب يده ، يعمل للناس فى الحصاد ، ويضرب لهم اللبن من الطين ، ويحرس البساتين .

وكانوا يكرهون التماوت فى الحركات تظاهرا بالتقى ، وانما كانوا يحيون حياة الناس ، بكل ما فيها من جد وقوة فى صالح العمل ، يرى احدهم ان خدمة فرسه الذى اعده للجهاد فى سبيل الله ومسح أعرافه من اجل انواع العبادة ، وكانوا يرون السعى على أرامل المسلمين وخدمة يتاماهم وضعفاءهم تحنثا وتقى ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ،

ويجهرون بكلمة الحق فى وجه الظلمة ، لا يبالون اكان الموت يسبقهـا اليهم ام هى تسبقه فتصدع قلوبهم ، لا يرون أبدا على باب أمير أو ذى سلطان ، فاذا اضطروا الى شىء من ذلك نصحوا لله ورسـوله ، يردون هداياهم ولا يقبلون شيئا من أموالهم ٠

وكان فيهم الامام العادل ، والخليفة الراشد والقائد الشجاع والعالم الربانى ، والصانع الماهر ، والتاجر الصدوق ، والزارع المحسن ؛ فهـى فى الامة روحها الذى تحيا به ، وعقلها المدبر ، وقلبها النابض بالخير وشعورها الحساس ، يستسقى الغمام بدعائهم ، ويستجلب النصر على الاعداء بأسيافهم وبركاتهم ، يقلون عند المغنم تعففا ، ويكثرون عند سماع الهيعة نجدة وشجاعة ، نفوسهم راضية ، واخلاقهم مرضية ، لا يحدثون الناس بما لا يفهمون ولا يفتنونهم بأقوال لا تبلغها عقولهم ، ولا تصل اليها مداركهم ، ينطقون بالحكمة ويدعون الى الله بالموعظة الحسنة ٠

هم الرعيل الاول من صفوة المؤمنين فى عهود صفاء الدين ، وطهارة اليقين ، ونقاء الشريعة من غلس الفلسفات الوافدة ، تحمل فى طياتهـا العقائد النابتة فى منابت الوثنيات المفلسفة محمولة على مراكب ذوى السلطان ، وركائب السياسة التى تبطنها طوائف الطامعين الطامحين ، فخلطوا قضاياها بقضايا الدين ، واحاطوا هذا الخليط المتنافر بمنطق دخيل براق استهوى بعض العقول ، فركنت الى مقاييسه ، تقيس بهـا أمور العلم والمعرفة ومحصول الافكار ، محاولة ان تخضع لمعاييرها سنن الله فى شرائعه التى لا يستقل العقل الانسانى بمدركاتها ، بل يعجـز هذا العقل فى بعضها عن أصل ادراكها ٠

ومن هنا انشعب التفكير الاسلامى :

أولا ــ الى تفكير عقلى افتتن بالعقل وعظمه جدا حتى كـاد يؤلهه ، وسلمه مقادته ، وحكمه فى النصوص الوحيوية يتأولها اذا لم يطق فهمها ووضعوا لذلك قاعدة ادخلوها على أصول الدين فأصبحت قاعدة من قواعده: اذا تعارض النص والعقل وجب اتباع العقل وتأويل النص ٠ ولا ندرى كيف قبل مفكرو المسلمين من الاحرار أهل الديانة والمعرفة بالله وشرائعه هذه القاعدة على اطلاقها ولماذا لم يضعوا فى مقابلها : اذا تعارض النص القطعى مع العقل وجب تعجيز العقل ، لان النص القطعى الذى قـد يعجز العقل عن ادراك حقيقته اليوم وتكشف له غدا ، والعقل مهما بلغ من القوة فهو محدود الغاية فى التفكير قاصر باعترافه عن ادراك كثير من الحقائق التى يعترف بوجودها ولا يدرى ــ حقيقتها ٠

يمثل هذا الفريق من ذوى الفكرة العقليين جملة طوائف المعـتزلة والمتفلسفة فالعقل عند هؤلاء معصوم من الخطأ ، مطلق العنان لا يقـف

عند حد فى التفكير والحكم ، وهذا غلو مفرط كان له خطره فى معركة الفكر الاسلامى ، ولا يزال هذا الخطر جاثما فى أفكار المجددين المعاصرين ٠

ثانيا ــ الى تفكير نصى يلتزم حرفية النصوص ، ولا يفسرها الا بالفاظها ، ويمثل هذا الفريق بعض المحدثين والفقهاء ، وهؤلاء كأنهم قابلوا غلو العقليين بغلو مثله ، يقف منه على طرف الجانب الآخر ، فاعطوا العقل حقه ، لان الله تعالى جعل العقل مناط التكليف ، فلا تكليف الا بعقل والتكليف لا يتم الا بفهم التكاليف ولم يجعل الله تعالى للانسان وسيلة لفهم شرائعه التى كلفها عباده سوى ما منحهم من عقل ، ووظيفة العقل معها ادراكها جملة فى أصولها كلها وادراكها تفصيلا فى الكثير من جزئياتها ، وقد يقف فى ادراك القليل منها مسلما لها ، او متربصا الفتح بفهمها ٠

وهؤلاء يتفاوتون فى استمساكهم بالنصية الحرفية ، فبعضهم يغالى جدا فلا يبيح لعقله ادنى حركة نحو فهم النص على غير ظاهره ، مهما كان هذا الظاهر ، ومن هؤلاء طوائف المشبهه والمجسمة وهم اغمار المفكرين ، وبعضهم يبيح لعقله ان يجوس خلال النصوص فى أناة وحذر ، يتأول منها ما يخالف الاصول المتفق عليها والتى قد اوضحتها اصول أخرى جاء فيها صريحة ، ومن هؤلاء بعض الحنابلة وسائر الظاهرية ٠

ثالثا ــ الى تفكير لا يبخس العقل حقه من الادراك ، ويطلق له العنان فى دائرة استطاعته المحدودة ، فهو فى نظر هؤلاء قاصر عن الاستقلال بادراك كثير من أمور الدين الاصولية والفرعية ولكنه قادر على فهمها اذا جاءته تكليفا ٠

ويمثل هؤلاء متكلموا أهل السنة من الاشاعرة وبعض مفكرى الفقهاء الذين اضطروا الى مجابهة الفرق الاخرى من طوائف المعتزلة وغيرهم فى محافل الجدل ليجادلوهم باساليبهم وقوانين منطقهم ، حفظا على عقائد الامة ان تشوشها شبه المتفلسفة وان يفسدها اعتساف التأويل ٠

وحينئذ رأى أهل العلم بالله من زهاد الامة وعبادها ان تيار الجدل الفلسفى كاد يجرف الناس ويشغلهم عن اخلاص العمل لله تعالى ، فلا بد من صيحة قوية منظمة ترد الشاردين عن حظائر المعرفة ، وترشد الحائرين الى الجادة ، وتهدى الضالين الى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الارض ، ورأوا أنهم لا يستطيعون القيام بهذا الواجب الذى يحتمه داعى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ وهو من اعظم خصائصهم ــ الا اذا خرجوا الى الناس من محاريبهم ، يدعونهم الى ربهم بأسلوب علمى منظم يجمع بين العلم والعمل ، وهذا يتطلب منهم النظر فى نصوص الكتاب والسنة ، نظرا يربط كل نص بموضوعه ،

ويضعه تحت عنوانه فى بابه تبيانا لحكمته ، تقريبا للعقول والقلوب بما يشبه صنيع الفرق المتجادلة فى الزى والشكل ، وان كان يخالفه فى الحقيقة والموضوع ، بعيدين عن ميادين الجدل والمراء ٠

لذلك أخذ فريق من اعلامهم يضع النصوص مواضعها من حقائقها ، منبها على معانيها مشيرا الى اسرارها ، مبينا طريق العمل بها ، شارحا اثارها ، مستشهدا بمواقف السابقين من صالحى الامة فى أشباهها ، تحبيبا للعمل فى طاعة الله والاخلاص له واستمالة للقلوب ، لم يخرجوا فى كتاباتهم ومؤلفاتهم عن الزهد ، والورع،والاخلاص ، ومحاسبة النفس بأسلوب بين محكم ، لا نجد لهم كلمة موهمة ، ولا عبارة محيرة ، يكسو كلامهم نور الحق وضياء الهدى ٠

وكان من حملة هذا العلم المنظم فى الكتب ، المضبوط فى المؤلفات ، نقيا خالصا ، قرآنيا نبويا أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، وأبو سعيد الخراز ، وابو طالب المكى ، واضرابهم من سلف زهاد الامة وعبادها، وهم وان اختلفوا روحانية ونفسا وصحة فى التأليف وايراد النصوص متفقون فى الاتجاه والغاية ، ومتسلسلون فى الحياة والزمن ٠

لم تتركهم الفرق المتشعبة من مذاهب المنطقيين العقليين ، والنصيين الحرفيين ، والفقهاء والمتكلمين المعتدلين ، وسائر الفرق الاخرى المنحرفة عن أصول الدين ، يسيرون فى طريقهم داعين الى الله تعالى مخلصين له الدين ، لا يمارون ولا يجادلون ، ولكنهم تناولوهم بأقلامهم والسنتهم يناقشونهم وينقدون طريقتهم ويعترضون أسلوبهم كأنهم فرقة من الفرق، وكان سلوكهم مذهبا من مذاهب الفكر الجدلى ، ولم يقصد اهل العلم بالله تعالى من الرعيل الاول بمؤلفاتهم ان يكونوا طائفة او فرقة او اصحاب مذهب من المذاهب ، يجادلون فيه ، ويناضلون عنه ، وانما كان قصدهم الدعوة الى الله ، وضبط ابواب العلم بالله ، والكشف عن حكم فرائضه وتعبداته ، وتحبيبها للناس ، اداء لحق الله فى نصيحة عباده ٠

ولهذا لم تكن لهم مؤلفات فى القرن الاول وكانت مؤلفاتهم نادرة جدا فى القرن الثانى لا تخرج عن كلمات مجموعة من أقوالهم فى مجالس تذكيرهم ، وحلقات وعظه نقلها عنهم مريدوهم وتلاميذهم ، ولم تظهر لهم مؤلفات مقصودة الوضع على نهج المؤلفين الا فى القرن الثالث الهجرى ، وهو العصر الذى احتدم فيه الجدال بين الفرق ووقعت فيه على أهل العلم بالله المحن الشداد فصبروا عليها وصابروها حتى كشف الله عنهم غمرتها وفى هذا العصر علا صوت الفلاسفة واهل الاعتزال من مؤلهى العقل على سائر الفرق ، وفيه بدأ متكلموا أهل السنة من الذين يجمعون بين النص والعقل يخوضون معهم بحار الجدل العميق بمنطقهم المتفلسف الذى يعسر

على عامة الامة من أوساط العلماء فمن دونهم فهمه والاعتماد عليه فى تصحيح العقائد والعمل بشرائع الله تعالى ٠

ويظهر انه كان فى طليعة من وطدلهم قواعد التأليف المنظم الشامل فى علوم الزهد والورع والاخلاص واقام لطريقتهم دعائمها ، ووطالهم سبله الامام ابو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى وفى كتابه « الرعاية ما يشهد بذلك فهو اول كتاب جامع لابواب السلوك العملى فى اسلوب علمى على نهج الزاهدين العباد من اهل العلم بالله وكان المحاسبى معاصرا للامام احمد بن حنبل ، وكان عليما بظاهر الشريعة واصول الدين على قواعد المتكلمين وخبيرا حاذقا بعلوم المعاملات والدلالة على الله وقد رد على المبتدعة فانكر عليه الامام أحمد فقال له الحارث الرد على المبتدعة فرض فقال احمد : نعم ، ولكنك حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها ، فلم يؤمن ان يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب او ينظر الى الجواب ولا يفهم حقيقته ٠

وكان المحاسبى اتجه (بعد ان رأى أهل زمانه مضيعين لرعاية حقوق الله ، وهو الامر الذى تولى الله عليه أنبياءه واحباءه ، لانهم رعوا عهده وحفظوا وصيته) (١) الى علوم المعاملات وحمل لواء الصوفية وكانوا فى عصره قد نظموا عقدهم فى طائفة تدعو الى الله بالعلم والعمل ، فأنكر عليه وعليهم أيضا الامام احمد بن حنبل فلما سمع منهم دون ان يشعروا استغفر الله من انكاره عليهم ، قال الشعرانى فى الطبقات (— قيل لاحمد ابن حنبل رضى الله عنه ان الحارث المحاسبى يتكلم فى علوم الصوفية ويحتج لها بالآى والحديث ، فهل لك ان تسمع كلامه من حيث لايشعر ، فقال : نعم ، فحضر معه ليلة الى الصباح ، ولم ينكر من احواله ولا من احوال اصحابه شيئا ، قال الامام احمد : لانى رأيتهم لما اذن بالمغرب تقدم فصلى ، ثم حضر الطعام فجعل يحدث اصحابه ، وهو يأكل ، وهذا من السنة ، فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس اصحابه بين يديه ، وقال : من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل ، فسألوه عن الرياء والاخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد عليه بالآى — والحديث ، فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئا يقرأ فقرأ فبكوا وصاحوا وانتحبوا ثم سكت القارىء ، فدعا الحارث بدعوات خفاف ، ثم قام الى الصلاة ، فلما أصبحوا اعترف احمد رضى الله عنه بفضله ، وقال : كنت اسمع عن الصوفية خلاف هذا ، استغفر الله العظيم ٠ (٢)

وكان ابو سعيد احمد بن عيسى الخراز رضى الله عنه اماما من أئمة

(١) الرعاية للمحاسبى ٠
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى ٠

الزهاد والورع ، أهل المعرفة والعلم بالله تعالى ، وهو معاصر للامـــام المحاسبي ، فكلاهما من أئمة القرن الثالث الهجرى وقد وضع أبو سعيد في بناء الصوفية المنظمة دعامة من دعائم التأليف فى علم المعامله والسلوك .

وكتابه (الطريق الى الله . أوكتاب الصدق) على صغر حجمه آية من آيات المصنفات الصوفية ، خلع الله عليه حلية القبول ، نحسب أن قارئه لايخرج من قراءته الا على شيء من نور ربه ، وهذا من أثر الاخلاص في العلم ، وهو يدل بقرب شبه من « رعاية » المحاسبي رضى الله عنه على وحدة المسلك في صوغ الحقائق الصوفية ، مقرونة بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية فى أظهر دلالتها ، ومعها أقوال الصحابة والتابعين كتطبيق واقعى للنصوص ، وهذه كانت سمة « التصوف » فى عصر هذين الامامين .

والحارث المحاسبي ، وأبو سعيد الخراز مثلان من اصدق الامثلة فى عصرهما على الصوفية المنظمة العالية التى لم تفارق السمت الاقوم من الادب الشرعى ، والقيام بحقوق الله تعالى على دعائم الشريعة المطهرة ، على الرغم من الصوفية « تطورت » واتخذت لنفسها فى القرن الثالث الهجرى كيانا خاصـــا له معالمه التى تدل عليه ويعرف بها ، واصبحت طائفة لها علومها ورسومهـــا وسلوكها

يقول المحاسبى فى كتــــابه (الوصايا) ثم انى وجـــــدت باجتماع الامة فى كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة فى التمســـك بتقوى الله ، واداء فرائضه ، والورع فى حلاله وحرامه ، وجميع حدوده ؛ والاخلاص لله تعالى بطاعته والتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم (١) ويقول ابوسعيد كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل .

وقد تكررت أمثال هذه الكلمات من أكابرهم فى هذا القرن الحاشد بهم ــ مما يدل على انهم شعروا ان شيئا بدأ يطرأ على نزعات بعضهم ، بفتح باب التقول عليهم بتخطى سياج الشريعة الى أمور لاتقرها نصوصها فأراد أئمتهم دفع قالة السوء عن طائفتهم ، وبيان أمرهم مشيد بالكتاب والسنة ، فكل ما يخالفهما فهو باطل ، لااعتداد به عندهم ولو صدر ممن يطير فى الهواء ويمشى على الماء ، ويطوى له المكــان وينشر له الزمان ، يقول ابو يزيد البسطامى : لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به تنظروا كيف تجدونه عنـــد الامر والنهى وحفظ الحدود وآداب الشريعة وروى القشيرى فى الرسالة أن أبايزيد قال لبعض اصحابه : قم بنا ننظر هذا الرجل الذى قد شهـــر نفسه بالولايا ، وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد ، فمضينا اليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف ابويزيد ولم يسلم عليه

(١) مقدمة الرعاية للاستاذين : عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور .

وقال : هذا رجل غير مامون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مامونا على مايدعيه ؟

ويقـــول سرى السقطى ، التصـــوف اسم لثلاث معان وهو الذى لايطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقصه عليــه ظاهر الكتاب والسنة ولاتحمله الكرامات على هتك أسرار محارم الله .

ويقول أبو حمزه البغدادى : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الى الله تعالى الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحواله وأفعاله وأقواله .

ويقول ابو القاسم القشيرى فى الرسالة بعد ان ترجم لعـــدد من متقدميهم فى علوم المعاملات والزهد والورع ، واكثر من ذكرهم من رجـال القرن الثالث :(هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضع التنبيه على انهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصفين بسلوك طرق الرياضة والديانة ، مقيمين على متابعـــة السنة ، غير مخلين بشىء من اداب الديانة متفقين على ان من خـــلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه مفتونا ، هلك فى نفسه وأهلك من اغتر بـــه ممن ركن الى أباطيله .

ومن العجيب ان بعض هؤلاء الاكابر اصحاب هذه التحذيرات الشرعية هم من الذين نقلت عنهم كلمات يصعب فهمها على مقتضى قوانين الشريعة وأحكامها وان ابا يزيد — وهو صاحب ذلك الكلام المشرق بأنوار الشريعة المطهرة كان فى طليعة من نقل عنه بعض الكلمات الجامحة التى يعســـر تأويلها بوجه صحيح ، كما نقل من غيره الفاظ خارجة عن نطاق الاصول الشرعية .

ومخرج ذلك عندنا أحد أمرين ، أولهما — أن ذلك مما حمله عليهم من لم يرج لله فيهم وقارا ، تشويها لسلوكهم وتعويجا لطريقهم حتى ينقطع عنها السالكون . وهذا يتأيد بما صح عنهم من القول الذى نقلنا طرفا منه فى تعظيم الشريعة والتزام حدودها ، والتصريح بان كل من خرج فى قوله أو فعله عن هذه الحدود هالك مفتون ، كما يتأيد أيضا بأفعالهم التى جعلوا سياجها تقوى الله والزهد فى مظاهر الدنيا والورع فى الحلال فضـــلا عن الحرام ، والتزام الفرائض وكثرة نوافل الخير فى آناء الليل وأطـــراف النهار ، وبعيد جدا ان يكون صاحب هذه السلوك متصنع للنـــاس يظهر خلاف مايبطن ، وهم من ذلك براء .

ثانيهما — ان القوم أهل رياضة ومجاهدة وتعبد ، ومناجـــاة فى

خلواتهم مع الاخلاص الكامل وفناء النفس عن رؤية عمل من أعمالها ،وان مرد الاعمال عندهم الى توفيق الله ، فهم متعرضون لنفحات الله فى سائر أوقاتهم ، ولله على عباده المتعرضين لنفحاته فيوضات من الاشراق الروحى تنزل على قلوب المخلصين ، فاذا فاجأتهم لمعات الاشراق بقوة فيضها ضعفت تحت أشعتها المرسلة من شمس التجليات الربانية ، قوة بشريتهم وأخذوا عن حقيقتهم التكليفية واندفعت السنتهم تعبر عن مشاهد الاشراق فعجزت العبارة عن الاداء فكانت منهم تلك الكلمات الجامحة فى مقياس الشريعة والعقل القاصرة فى ميزان المشاهدة والمكاشفة .

فعجز بشريتهم عن تحمل مباغتات الاشراق هو الذى ادى الى قصور العبارة عن آداء حقيقة المشاهدة وقصور العبارة عن ذلك الاداء هو الذى البسها جلباب الجموح عن جادة الاصول الشرعية .

ولعل هذا المعنى هو بيان مايعتذر به عنهم المعتذرون عن ان ذلك صدر عنهم فى حال سكرهم وغيبتهم عن شهود أنفسهم .

ولهذا لاتوجد امثال هذه الكلمات الجامحة عند أهل الصدر الاول من الصحابة والتابعين لتمكنهم من منازل الشهود وصحوهم دائما وقوة أرواحهم وصفاء بشريتهم بما كسبوه بمشاهدة انوار النبوة مباشرة كالصحابة أو بالواسطة القريبة كحال التابعين ، كبار اتباعهم .

وهنا نلاحظ أن الذين صبت اليهم تلك الكلمات الجامحة اكثرهم من سلالات كان لاصولها القريبة أو البعيدة نسب واسع فى العقائد الوثنية المفلسفة ، كما نلاحظ ان العصر الذى عاشه من نسبت اليهم تلك الكلمات الجامحة كان عصر تفلسف فى العقيدة الاسلامية من جانب أنصارها دفاعا عنها ومن جانب خصومها افسادا لها ، فهل كان لذلك التفلسف العقيدى فى العصر الذى عاشوه أو أصالة النسب فى السلالات الوثنية المفلسفة أثر فى ذلك ؟ هذا شىء يحتاج الى بحث عميق واستقصاء بعيد المدى لم يسعفنا وقت هذا البحث بهما ونحن نميل الى تبرئة الاكابر من أئمة الصوفية فى عصرها الاول الذى استقامت فيه معانها ، وتميزت فيه بخصائصها ، واحتفظت فيه بصفاتها التى صورها المحاسبى والخراز فى كتابيهما ، ونرى ان كل قول يخالف نصا قطعيا فى الشريعة نسب الى أحدهم هو من باب التقول ، والكذب عليهم .

هكذا مرت الصوفية والتصوف فى المرحلة الاولى من الحياة فى تاريخ الاسلام ، ففى القرن الاول نبتت بذرتها على أيدى الزهاد والعباد وأهل الورع والتقوى الذين أرمضت الفتن الداخلية فى الامة الاسلامية قلوبهم ، فاعتزلوها منطوين على أنفسهم ، يعبدون الله قياما بفرائضه مخلصين له الدين ، لا يريدون دنيا الناس ، ولا يزاحمونهم عليها .

ولما انفرط عقد القرن الاول ، ودخل القرن الثانى كانت الصوفية قد قامت على ساقها غضه الاهاب ، لم تستكمل كيانها ، وبدأ اهلهـــا يتحدثون عن المراقبة والاحسان والاخلاص والتقوى ، ومحاسبة النفس ورعايه حقوق الله والصدق فى معاملته ، وبدأ الناس يرون فيهم لونا جديدا للعمل والجد فى العبادة والتجافى عن الدنيا وزخارفهـــا ، حتى أصبح لهم فى حياة المسلمين حديث يتحدث به حين حين يشيرون اليهم . كما أصبح لهم فى حياة المسلمين حديث يتحدث الناس به حين يشيرون اليهم كما اصبح لهم كلمات خاصة تتردد فى مجالات معارفهم وعلومهم ،عرفت بهم وعرفوا بها ، ونهض جماعة من أهل علومهم ومعارفهم يقيدوّن أقـــوال أئمتهم ، ويرصدون كلماتهم الى جانب آى القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضى الله عنهم ويجعلونها كالتفسير للقرآن والسنة على أنها من وارداتهم المستنبطة من صفاء باطنهم وقيامهم على العمل بالشريعة المطهرة على قدم المراقبة والاخلاص .

ومن هنا نبع عندهم ما سموه بعلم الباطن ، وهو عند أكابرهم من السابقين ليس الا زبدة العمل بالشريعة ، وثمرة المجاهدة فى القـــيام بأوامر الله ، وبه يفسرون قوله تعـــالى (واتقـــوا الله ويعلمكم الله) والتقوى لا تتحقق الا بالعلم وهو علم الشريعة علمه الله علوما كثيرة أو أفاض عليه معارف لا نهاية لها .

ويعتبر هذا الدور دور حضانة للصوفية والتصوف ، فيه شبت على أقدام التكوين الطائفى ، وفيه تجمعت لها خصائص هيئتها الى أن تبرز فى وجود الحياة الاسلامية طائفة ذات معارف وعلوم ، وذات منطق خاص له عندها أصوله وقواعده .

ولم يكد ينصرم القرن الثانى حتى كانت الصوفية والتصوف طائفة من خلاصة المسلمين قائمة بذاتها بين الطوائف الاسلامية ،لهاخصائصها ومعالمها التى يستدل بها عليها وميزاتها التى تعرف بها ، ولها أئمتهـــا ومعارفها ، ولها مصطلحاتها فى تلك العلوم والمعارف ، ولها ائمتهـــا وروادها ، ولها حلقاتها الدراسية ، ولها كتبها ومؤلفاتها ولها حياتهـــا الخاصة التى تقوم على رياضة النفس وتهذيبها وتخليصها من عبـــودية الغرائز ، وتصفيتهـــا من كدورات الاهواء والرذائل ، ولها وراء ذلك مجاهداتها فى عبادة الله وذكره ، وتذكير عباده بالائه ونعمه ، ليجذبوهم الى حظائر قربه ومعرفته .

وفى هذه المرحلة كان أخص ما يتحدث فيه ائمتهم أسرار التوحيد ودلائل الربوبية ولم تخرج أحاديثهم قط عن السنن الاقوم المعتمد على الاصول الشرعية ، بيد انها كانت تخرج الى الناس بأسلوب على غير ما عهده العلماء فى الجدل المنطقى الذى كان يســـود الحياة العلمية

الاسلامية منذ القرن الثاني، بل كان أسلوبهم أسلوبا منفردا بخصائصه خلع الله عليه جلابيب القبول ، والصولة على العقول ، يفهمه من أنس به ، وينتفع به من يسلم له ، روى ان الامام أبا العباس ابن سريج اجتاز الى حلقه الجنيد ، وكان يتكلم في التوحيد ، فسمع كلامه ، فسألوه عنه ، فقال : لا أدرى ما يقول ، ولكنى أجد لكلامه صولة ليست بصولة مبطل.

وفى القرن الرابع كانت الصوفية حقيقة كبرى من الحقائق التاريخية الوجودية فى حياة المسلمين ، استكملت جميع مقوماتها ، وأصبحت لها مدارسها الخاصة ، ومحافلها الحاشدة ومصطلحاتها العلمية وطرائقها فى التفكير ، ومناهجها فى التربية والسلوك .

وفى هذه الفترة من عنفوان القرن الرابع عاش محمد بن أبى الحسن المعروف بأبى طالب المكى صاحب « قوت القلوب » وهو الكتاب العظيم الجامع لعلوم المتصوفة وأحوالهم ومقاماتهم ، وهو دائرة معارف لهم ، ومصدر من أوسع مصادرهم ، عرض فيه أبوطالب منهج الصوفية العلمى وأبان عن سلوكهم ، ورسوخهم فى المعارف الربانية ، وطريقة فهمهم للنصوص الشرعية من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية حريصا على أن يجعل من أقوال العلماء والائمة فى فهم هذه النصوص وسيلة لتقريب فهم الصوفية الى الناس أو ليجعل فهم الصوفية فى النصوص متمشيا مع آراء علماء الشريعة الذين سماهم أبو طالب علماء الظاهر وجعل علمهم علم الظاهر ، وعلم الصوفية علم الباطن وربط بين العلمين ربطا جعل احدهما لا يستغنى عن الآخر مع تفضيل علم الباطن ورفع درجته على علم الظاهر فيقول : ولعمرى ان الظاهر والباطن علمان لايستغنى احدهما عن صاحبه بمنزلة الاسلام والايمان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما على صاحبه .

وهذا هو الامتياز الذى اتخذه المتصوفة خصيصتهم بين علماء الاسلام ، وهو الذى يدندنون حوله ، وهو الذى فتح لمتأخريهم ابواب التوسع فى معانى النصوص توسعا يخرجها عن حقائقها الشرعية ، فاذا عورضوا بمدلولات الالفاظ وأوضاعها اللغوية والشرعية قالوا : هيهات فهيهات هذه المدلولات والاوضاع اللغوية والشرعية هى من علم الظاهر الذى يكلف به العامة ، وهناك وراء هذه المدلولات والاوضاع علم الباطن الذى هو ثمرة الفتح الناشىء عن المعرفة وصدق المعاملة مع الله سبحانه ، ويستدلون بحديث (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم .)

وأبو طالب المكى وان كان مسبوقا بها الاتجاه الصوفى لكنه يعتبر أول من وضعه وضعا علميا يحتج له بالنصوص وأقوال الائمة من علماء الشريعة . ولهذا كان كتابه (القوت) من أهم مصادر الصوفية المحافظين

ونحن نسوق مثلا من كتابه على اتجاهه هذا ليتبين حظ هـــذا الامام من تأسيس التصوف تأسيسا علميا ، وهـذا التأسيس العلمى مرحلة ثانية من مراحل التصوف ، وهى أهم واعظم مراحله ، وعليهـــا ينبنى كل من جاء بعده ، وهى الطريقة التى تبطنهـا الامام الغزالى فى كتابه «الاحياء» مقاربا محافظا على أصول الشريعة وفروعها ٠

قال أبو طالب فى شرح قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العـــلم فريضة على كل مسلم) : (قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله : أراد بذلك علم حال ، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه ، بأن يعلم أحدكم حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخـرته خاصة ، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك ٠

وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة ، وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره ٠

وقال بعض علماء الشام : انما عنى به طلب علم الاخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها ، ومعرفة مكايد العـــدو وخدعه وغروره ، وما يصلح الاعمال ويفسدها ، فريضه كله من حيث كان الاخلاص فى الاعمـال فريضة ، ومن حيث أعلم بعداوة أبليس ، ثم أمر بمعاداته ، وذهب الى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأرموى ومن تابعه ٠

وقال بعض البصريين فى معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة ٠ لانهـا رســل الله الى العبد ، ووسواس العدو والنفس ، فيستجيب لله تعالى بتنفيذ ما منه اليه ، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدة نفسه فى نفيها ، ولانها أول النية التى هى أول كل عمل ، وعنها تظهـر الافعـال ، وعلى قدرها تضاعف الاعمال فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس وبين علم اليقين وقوادح العقل ليميز بذلك الاحكام وهذا عنـــد هؤلاء فريضـــة ، وهـــو مذهب مالك بن دينار ، وفرقد السنجى ، وعبد الواحد بن زيد واتباعهم من النساك ، وقد كان استاذهم الحسن البصرى يتكلم فى ذلك ، وعنده علم لقلوب ٠

وقال عباد أهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة ، اذ قد أمر الله تعالى به ، وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام ، وقد جاء فى حديث مفسر : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » ومال الى هذا القول ابراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد ، وحبيب بن حرب ٠

وقال هذه الطائفة من أهل المعرفة : معنـــاه طلب علم البـــاطن

فريضة على أهله ، قالوا : وهذا مخصوص لاهل القلوب ممن استعمل منه ، واقتضى منه مدة دون غيره من عوام المسلمين ، ولانه جاء فى لفظ الحديث: (تعلموا اليقين) فمعناه علم اليقين ، وعلم اليقين لايوجد الا عند الموقنين ، وهو عن أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين ، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر فى قوله صلى الله عليه وسلم : « وعلم باطن فى القلب ، وهو العلم النافع » فهذا تفسير ما أجمل فى غيره .

وقال جندب : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا الايمان ، ثم يعلمنا القرآن فازددنا ايمانا ، وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الايمان ، يعنى تعلمنا علم الايمان ، وهذا مذهب نساك أهل البصرة .

وقال بعض السلف : انما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد ، وأصول الامر والنهى والفرق بين الحلال والحرام اذ لا غاية لسائر العلوم بعد ذلك .

وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات ، ثم قد اجمعوا ان ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضا ، وانما فيه فضل او ندب .

وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع والشراء ، والنكاح والطلاق واذا أراد الدخول فيه افترض عليه من دخوله فى ذلك طلب علمه لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يتجر فى سوقنا هذا الا من تفقه ، والا أكل الربا . شاء أم أبا ، وكما قيل تفقه ثم اتجر ، وقال الى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما .

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان : هو أن يكون الرجل فى منزله فيريد أن يعمل شيئا من أمر الدين ، أو يخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد ، وعلى العبد فى ذلك اعتقاد او عمل فلا يسعه أن يسكت على ذلك ، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم بهواه ، فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله عن ذلك عند النازلة ، فهذا فريضة ، وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث .

وقال آخرون : يعنى طلب علم التوحيد فرض ، وانما اختلفوا فى كيفية الطلب وماهية الاصابة ، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال والاعتبار ، ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال : من طريق التوفيق والاثر .

وقالت طائفة من هؤلاء : انما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات

اذا سمعها العبد وابتلى بها ، وقد كان يسعه ترك الطلب اذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين ، لا يقع فى وهمه ولا يحيك فى صدره شيء من الشبهات فيسعه ترك البحث ، فاذا وقع فى سمعه شيء من ذلك ووقر فى قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلا أو ينفى حقا فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره ، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل ، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيما على شبهة ويتبع الهوى ، أو يكون شاكا فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين ، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم ، ولهذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم أرنا الحق حقا فنتبعه وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه ، ولا تجعل ذلك مشتبها علينا فنتبع الهوى • وهذا مذهب ابى ثور ابراهيم بن خالد الكلبى ، وداود بن على والحسين الكرابيسى، والحارث بن أسد المحاسبى ، ومن تابعهم من المتكلمين •

قال أبو طالب رحمه الله بعد أن ساق ما تقدم : فهذه أقوال العلماء فى معنى هذا الخبر ، حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة ، واحتججنا لكل قول ، فالالفاظ لنا ، والمعنى لهم ، وهذا كله حسن ومحتمل ، وهؤلاء كلهم وان اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ ، فانهم متقاربون فى المعنى الا أهل الظاهر منهم ، فانهم حملوه على ما يعلمونه ، وأهل الباطن تأولوه على علمهم ، ولعمرى أن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الاسلام والايمان، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب ، لا ينفك أحدهما عن صاحبه

ثم قال أبو طالب : والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر — والله أعلم — أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة • يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بنى عليها الاسلام من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها ، ثم أن العمل لا يصح الا بعلمه ، فأول العمل العلم به ، فصار علم العمل فرضا من حيث افترض العمل •

ثم ذهب يفصل القول فى ادخال جميع الاقوال المعتبرة عند علماء الشرع من الفقهاء والمحدثين ، وعند علماء علم القلوب والخواطر واليقين من المتصوفة فى عموم القول الذى اختاره ، وهذا حسن بيد أنه اخراج الحديث عن عمومه المقصود بدلالة ما أورده أبو طالب من النصوص الخاصة فى بعض العلوم ، وادخال اصحابها لها تحت مفهوم العموم من الحديث •

ومن حق هذا البحث أن يفهم هذا الحديث الدائر على السنة

العلماء ، الذى يعتبرونه سندا قويا فى نصوص الاسلام على حبه للعلم والمعرفة ، وتقديرهما حق قدرهما وأعظامهما والحث عليهما ، أنه — كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — على عمومه فى سائر أنواع العلم والمعرفة ، والمخاطب به الامة كلها ، فلا يخرج عنه علم من العلوم ، ولا باب من أبواب المعرفة ، ولا ينبغى قصره على شىء منها دون غيره وفرض الكفاية باق على فرضيته بالنسبة لعموم الامة ، وفرض الاعيان متوجه على الافراد والذوات المكلفين فى ضمن عموم خطاب الامة .

وفى ايراد هذا الحديث بنصه الذى أورده به أبو طالب رحمه الله دقة حديثية تثنى للامام أبى طالب ، حيث رواه مقطوعا عما زاده فيـــه بعض المتأخرين ممن لم يتمرس على النظر فى أحاديث رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم من كلمة (ومسلمة) وهـــو بنصه الصحيح كما رواه الثقاة ، وكما ذكره فى « القوت » لا حاجة به الى هـــذه الزيادة ، لانه جرى على سنن النصوص العامة التى ترد بلفظ التذكير ، ويراد بها ما يعم الرجال والنساء فى التكليف باعتبار ان التكليف يسوى بين الرجـــال والنساء ولا يفرق بينهم ، وانساء شقائق الرجال فى جميع الاحكام الا ما خصه الدليل بالنص ، أو بطبيعة الخلقة الالهية والتكوين الربانى .

فانظر الى هذا الامام العالم الصوفى « المتفقه الربانى كيف أدار الحديث فى بيان معنى الحديث المشهور المتعالم بين العلماء ، وكيف عرض فى تفسير معناه أقوال العلماء من الفقهاء والمتحدثين والمتكلمين والنساك المتعبدين أرباب علم القلوب ، بل كيف أدخل فى معنـــاه خطرات بعض المتصوفة وسبحاتهم البعيدة الاحتمال عن معنى الحديث ، وجعـــل تلك الخطرات معنى محتملا فى جملة ما يحتمله الحديث من التفسير والمعنى . وانظر اليه كيف استدل لكل قول بنصوص من الاحاديث وأقوال اكابر الصحابة رضوان الله عليهم التى وردت فى تلك المعانى الخاصة بمحـــل ورودها ، حتى المعانى التى نحانحوها المتصوفة استدل لها بنصـــوص خاصة فى معانيها ، وهذه النصوص الخاصة مشهورة عنـــدهم متداولة بينهم ، ولكنها لا ترتفع الى درجة حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم)

فأبو طالب المكى رحمه الله تعالى يريد من هذا الاتجاه العلمى فى كتابـــه أن يفهم قارئوه من سائر الطوائف والمـــذاهب أن (المتصوفة) لا يذهبون فى فهم النصوص فهما لا تحتمله معانيها ، فهم وان قـــــالوا بعلم الباطن فى تفسير النصوص فانهم لا يخرجون بباطنهم عن مؤاخاه علم الظاهر .

وذلك هو ما قصـــدناه بقولنا : ان أبا طالب المكى أسس بكتابه

« الفرن » التصوف تأسيسا علميا ابتدأت به المرحلة الثانية من مراحل « التصوف » .

جاء بعد أبى طالب المكى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى الامام زين الاسلام أبو القاسم القشيرى وكان من أئمة المسلمين فى الفقه وأصوله ، وأصول الدين وطرائق المتكلمين ، وله فى الحديث وروايته مكان لا يقتحم ، وفى التفسير مقام لا يهدم وفى الادب وبراعة البيان كان آية من آيات الفصحى ، وكان فى حدة الذكاء وقوة الحافظة مثلا مضروبا ، روى أنه اختلف الى درس الاستاذ الامام ابى اسحاق الاسفراييني ، وسمع دروسه فى جملة أيام ، فقال له الاستاذ : هذا العلم لا يحصل بالسماع ، فأعاد على الامام جميع ما سمعه منه فى سائر الايام التى حضرها مع الضبط وحسن التقرير ، فتعجب منه أبو اسحاق وقال له : ما كنت أدرى انك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج الى دروسى ، يكفيك أن تطالع مصنفاتى ، وتنظر فى طريقى ، فان اشكل عليك شىء طالعتنى به .

وكان من حسن موافقات الاقدار الالهية لابى القاسم القشيرى أن جمعه الله على الشيخ أبى على الدقاق ، وهو امام وقته فى علم المعاملات والخواطر وكان لسان الصوفية الناطق بعلومها فى عصره ، حضر القشيرى مجالسه وسمع منه ، فأعجبه ولازمه ورأى الدقاق نجابته فأرشده الى الاشتغال بالعلم ، فاشتغل به وحضر دروس الائمة من أضراب أبى بكر الطوسى ، وابن فورك والاسفراييني وقرأ كتاب الباقلانى حتى برع فى الفنون الشرعية والعقيدية والعربية ، ولم ينقطع عن مجالس الدقاق الذى حذق عليه علم القلوب ، وتمرس على اشارات الصوفية ولوامع خواطرهم بعد طول الرياضة والمجاهدة حتى أصبحت احوال الصوفية خلقا له وفطرة مع تضلعه فى سائر العلوم ، وقد ألف فى كل فن كان فى عصره معروفا فى العلوم الشرعية والادبية مؤلفات اشتهرت بين العلماء فى الشرق والغرب — ومن أشهرها تفسيره للقرآن الحكيم ، الذى يعد مرجعا من المراجع الاصلية لكافة المفسرين الذين جاءوا بعده .

ولما أحكم أبو القاسم القشيرى طريق القوم على يد استاذه الدقاق سلك بعد وفاته مسلك الرياضة والمجاهدة والتجريد ، ووضع فى « التصوف » رسالته التى اشتهرت فى مشارق الارض ومغاربها حتى جاوزت شهرتها بلاد الاسلام ، وقد سلك فيها أبو القاسم مسلكا صوفيا بحتا ، وهو يقول فى مقدمتها : أنه كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام ، ثم أخذ يذكر نعوت طائفة الصوفية الذين مضوا قبل عصره ذلك الذى امتحن فيه أكابر العلماء من أهل السنة ، وفى مقدمتهم صاحب

الرسالة فقال : (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الامة بطوالع أنواره ، فهم الغيات للخلق ، والدائرون فى عموم احوالهم مع الحق بالحق ، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم الى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ، ووفقهم للقيام بآداب العبودية ، واشهدهم مجارى أحكام الربوبيـــة ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا الى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الاعمال ، أو صفا لهم من الاحوال ، علمـــا منهم بأنه جل وعلا يفعل مايريد ، ويختار ما يشـاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم عدل ، وأمره قضاء فصل) ٠

ثم أخذ ابو القاسم يذكر ما أصاب هذه الطائفة فى عصره من انقراض محققيهم وخلو البلاد منهم ، وسوء حال المدعين لطريقتهم ، واستفحال فسادهم حتى ادعى من ادعى منهم أنهم (تحرروا عن رق الاغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم محو : وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كشـــفوا بأسرار الاحدية واختطفوا عنهم بالكليه ، وزالت احكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم اذا انطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا)

وهذا اشارة الى مذهب نحلة ضالة ادعت التصوف لتتستر به ، وهم اباحيون ، يسقطون التكاليف ، وهم الذين قال فيهم الجنيد رضى الله عنه : ان من يسرق ويزنى خير من هؤلاء وهذه الاشارة من أبى القاسم القشيرى تدل على ما دخل على الصوفية من تلاعب وفساد على يد بعض الطوائف الضالة من الباطنية ٠

ثم ذكر أبو القاسم انه أشفق على القلوب ان تضل القصد فى حق التصوف والمتصوفين فتحسب ان امر هذه الطائفة بنى قواعده على هذه الجملة التى حكاها عن أهل الضلالة ، فعلق (هذه الرسالة ، وذكر فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم واخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيهم من بدايتهم الى نهايتهم لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة) ٠

والقشيرى رحمة الله تعالى قد نقل « التصوف » برسالته نقلة كبرى لانه أجرى الحديث فى فصولها وموضوعاتها بطريقة صوفية بحتة ، لم يسلك فيها مسلك المحاسبى فى (الرعاية) بل ولا مسلك أبى طالب المكى فى (القوت) من حيث مزج النصوص الشرعية بأقوال الصوفية وآدابهم فى

ثنايا الابواب والفصول ، بل يكتفى فى الاعم الاغلب بايراد بعض النصوص من الآى أو الاحاديث النبوية فى أوائل الابواب ثم ينفلت مسرعا الى أقوال الصوفية يشرح بها مايريد من الفاظهم ·

وخصص أبو القاسم رحمه الله تعالى بابا من رسالته لذكر مصطلحات القوم فى أحوالهم ومقاماتهم بألفاظهم التى تدور على ألسنتهم ، وخصص كل لفظ بفصل مستقل ، لتفسيره وبيان معناه بأقوال أكابرهم ·

وقد ترجم فى باب من ابواب الرسالة لبعض شيوخهم ، ثم أخذ فى شرح تلك الالفاظ التى يعبرون بها عن معان يحسونها بقلوبهم وعقولهم ووجدانهم فيذكر أبو القاسم : الوقت ، والمقام ، والحـــال ، والقبض والبسط ، والهيبة والانس ، والتواجد ، والوجد والوجود والجمع والفرق وجمع الجمع والفناء ، والبقاء ، والشريعة والحقيقة وغير ذلك من ألفاظهم التى يقصدون بها الى معان لا يعرفها غيرهم ولا يقول بها سواهم ·

وذكر أبو القاسم رحمه الله فى باب (حفظ قلوب الشيوخ وترك الخلاف عليهم) أمورا يتوقف فى قبولها أهل الشرع ، ولا يرضـــاها العقليون ، وساق فى مطلع هذا الباب قصة موسى والخضر عليهما السلام لبيان مايلزم من أدب الصحبة بين العلماء بالله ، وليس هذا من قبيل اعتماد كافة متأخرى المتصوفة على هذه القصة فى مسألة علم الظاهر والباطن ، ومسألة الحقية والشريعة عندهم ·

والقصة ـ كما جاءت فى القرآن الكريم وصحيح الحديث ـ لاتتند فيها لشيء من ذلك ، لانها وردت على سبب معين ، كما فى حديث البخارى ومسلم (ان موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا : فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه ، ان لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك) واستدل موسى عليه السلام ربه على مكان هذا العبد الاعلم منه ، ليتعلم منه مما علمه الله ، فدله الله عليه ، وذهب اليه موسى عليه السلام ، وجرت الحوادث الخاصة التى كان العبد العليم يعلم حكمها بتعليم الله ووحيه ، ولم يكن موسى عليه السلام على علم بأحكامها ، لان الله لم يعلمه بها بوحيه ، اذ لم تكن نوازلها واحداثها مما يحتاج الى علم الحكم فيها ، لانها لم تقع فى قومه ولو احتاج اليه لوقوعها لوجب أن يكون على علم بها أداء لحق الرســـالة والنبوة ·

ولذلك قال العلماء بالقرآن والسنة : ان معنى قوله : هو أعلم منك ، أى ـ بأحكام وقائع مفصلة وحكم نوازل معينة ، لامطلقا فى جميع العلم والمسائل ، بدليل قول العبد العليم لموسى : (انك على علم علمكه الله لا

أعلمه أنا ، وانا على علم علمنيه الله لاتعلمه انت) وهذا صريح فى ان كل واحد منهما كان اعلم من صاحبه بالنسبة الى مايعلمه بوحى الله اليه ولا يعلمه الآخر ، لان الله تعالى لم يأمره به لا كما يشير الى ذلك قوله (وما فعلته عن أمرى) .

وهذا شبيه بما ورد فى قصة داود وسليمان عليهما السلام فى قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما)قال العلماء بالقرآن والسنة : كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى اليهما ، فحكم داود بوحى ، وحكم سليمان بوحى : وكلا حكميهما صحيح ، الا ان حكم سليمان كان أرفق بالقوم ، ولذلك أثنى الله عليهما فى نسق واحد فقال : (وكلا آتينا حكما وعلما) ولو كان حكم داود خطأ لما اثنى الله عليه مع سليمان باعطائه الحكم والعلم معا كما أعطاهما لسليمان .

ومن هذا الباب حديث أبى هريره عند مسلم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن احداهما، فقالت هذه لصاحبتها : انما ذهب بابنك انت ، وقالت الاخرى : انما ذهب بابنك ، فتحاكما الى داود ، فقضى به للكبرى : فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام ، فاخبرتاه ، فقال : ائتونى بالسكين أشقه بينكما: فقالت الصغرى ، لا ، يرحمك الله ، هو ابنها : فقضى به للصغرى) فحكم داود عليه صحيح باعتبار التشريع العام والاخذ بالقرائن والامارات الظاهرة : وحكم سليمان صحيح باعتبار هذه النازلة التى ظهر له فيها صدق الصغرى فحكم لها به تغليبا لقرائنها وأماراتها على قرائن وأمارات الكبرى .

وفى قضية موسى عليه السلام كان العبد العليم بحكم نوازله الخاصة نبيا يوحى اليه بدليل قوله فى آخر القصة (وما فعلته عن أمرى) ولا مانع أن يكون عند أحد الانبياء — الموجودين فى زمان واحد علم بأحكام حوادث تقع فى قومه ليس هذا العلم عند غيره من الانبياء الذين لايحتاجون فى قومهم الى حكم هذه النوازل بعينها .

ويستحيل ان يكون غير النبى أعلم من النبى لما يؤديه ذلك الى الطعن فى مقام النبوة ، وهو أعلى مقامات البشر عند الله تعالى ، فلا تعلق لغير الراسخين من القوم ولا سند لهم فى هذه القصة التى يتشبثون بها فى حكاية الظاهر والباطن ، والحقيقة والشريعة ، وكل ماجرى فى القصة هو من العلم الشرعى الذى علمه الله لعبده العليم بوحى منه تعالى ، ولم يعلمه موسى عليه السلام ، لانه لم يحتج اليه فى قومه ، ولو احتاج اليه موسى فى قومه لوجب ان يكون على علم به من الله تعالى .

ولم يؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين وأكابر الائمة والراسخين من أهل العلم بالله قول بخلاف ذلك ، وانما كانت هذه الظاهرة عند المتشبهين بالمتصوفة من العاطلين عن حلى الاخلاص والمراقبة .

وأبو القاسم رحمه الله يروى فى هذا الباب عن أبى عبد الرحمن السلمى انه قال : خرجت الى مرو فى حياة شيخى الاستاذ أبى سهل الصعلوكى ، وكان له قبل خروجى أيام الجمعة بالغدوات مجلس دور القرآن والختم فوجدته عند رجوعى قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لابى الغفانى فى ذلك الوقت مجلس لقول – أى السماع – فداخلنى من ذلك شيء ، فكنت اقول فى نفسى : قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول ، فقال لى يوما : ياأبا عبد الرحمن ايش يقول الناس فى ؟ فقلت : يقولون : رفع مجلس القرآن ووضع مجلس القول ، فقال : من قال لاستاذه : لم . لايفلح أبدا .

هذه الحكاية وأمثالها يجرى مافيها عند متأخرى المتصوفة مجرى القانون الحتمى الذى لا تصح مخالفته فيما بين الاستاذ ومريديه ، وليس من حق التلميذ والمريد عندهم أن يقول لاستاذه : لم فعلت ؟ ولا لم تركت ؟ ولو رأى منه المخالفة الظاهرة لاوامر الشرع ونواهيه ، وبعض مؤلفيهم يبرزه فى صياغة يجعلها من أدب المريد والتلميذ مع استاذه فيقولون فى أدب الطريق : يجب على المريد ان يكون مع شيخه كالميت بين يدى الغاسل لا ارادة له معه .

وهذا أمر خطير فى دين الاسلام ، يفتح أبواب تعطيل الشريعة أمام من لم ترسخ قدمه فى معرفة الله تعالى ، ويؤدى الى عدم احتشام الاحكام واحترامها ، والى الاستهتار بها تحت ستار الاستأذية والمريدية ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والخلفاء الراشدون يقول كل واحد منهم لرعيته : أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فيقوم اليه رجل من عرض الصفوف ، ويقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فيحمد الله تعالى عمر على أن جعل فى رعيته من رزق من شجاعة النفس وقوة الدين ، فيقوم اعوجاج خليفته بسيفه .

والامة مجمعة على أن شرعة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لاتبطل بالاستاذية والتلمذة ، فالحكم على المريد الذى يقول لشيخه : لم ؟ استطلاعا لوجه الامر فعل لم يفهم وجهه ، أو انكارا لعمل من الاعمال رآه التلميذ مخالفا لقواعد الشرع وأحكامه ، بأنه لا يفلح حكم لا يقره الشرع ولا

يرقباه العقل ، ويتنافى مع التربية الاسلامية التى توجب شجاعة النفس وجرأة القلب فى الحق .

والمعروف فى آدب الارشاد الشرعى أن يترك للتلميذ فرصة الفهم لما يرى ويسمع ، ثم يسمع منه بصدر رحب ما يعتلج فى نفسه ليرشد الى الصواب ان أخطأ ، ويقوم اذا اعوج .

ويجب فى هذا المقام أن يفرق بين السائل ليفهم ، ويذهب وغر صدره ، وبين السائل تعنتا أو تنقصا ، فحق الاول رحابة الصدر والارشاد والتفهيم والصبر على معالجته ، وحق التدنى الادب ، كما يجب الفرق بين انكار الامور التى لها مخارج من الشريعة ، والامور التى لا مخرج لها فى مذاهب العلماء ، فحق الاولى بيان مخارجها وحق الثانية التسليم لمن أنكر عليها .

ويحكى القشيرى فى هذا الباب . ان شقيق البلخى وابا تراب النخشبى قدما على أبى يزيد البسطامى رضى الله عنهم ، فقدمت السفرة وشاب يخدم أبا يزيد ، فقالا له : كل معنا يا فتى ، فقال : أنا صائم : فقال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فابى ؛ فقال شقيق : كل ولك أجر صوم سنة ، فأبى ، فقال أبو يزيد : دعوا من سقط من عين الله تعالى ، فأخذ ذلك الشاب فى السرقة بعد سنة فقطعت يده .

وهذه الحكاية من جنس ما تقدم ، بل أشد ، لان أهل الله قلوبهم مشغولة بالله تعالى ، مليئة برحمته ولطفه بخلقه ، فهذا الشاب صائم متلبس بعبادة الله تعالى ، دعى الى ابطالها ومشاركة الاشياخ طعامهم وهو شرف لهذا المريد ، ولكنه رأى أن يختار رضاء الله تعالى بالاستمرار فى عبادته على هذا الشرف ، فما كان يضر هذه الحكاية لو جعلت هذا الشاب من أبطال أهل الله الذين يؤثرون الله على خلقه ويؤثرونه على شهواتهم ؟ وماكان يضر هذه لحكاية لو أنها جعلت مكان سخط الاشياخ على شاب يخدم أحدهم دعوات له بالتوفيق يجذبه الى الاخذ فى رفيع الطاعة بديلا عن الاخذ فى السرقة التى قطعت يده فيها ؟ وأصبح مقصيا من حظيرة أصحاب القلوب الرحيمة ؟

وأبو القاسم رحمه الله تعالى يجعل من الصوفية مذهبا يجب على المريدين أتباعه وعدم الالتفات الى غيره من المذاهب الشرعية فيقول : (ويقبح بالمريد أن ينتسب الى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقه ، وليس انتساب الصوفى الى مذهب من مذاهب المختلفين سوى طريقة الصوفية الا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فان هؤلاء حججهم فى مسائلهم أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من

قواعد كل مذهب ، والناس اما أصحاب العقل والاثر واما أرباب العقل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ، فالذى للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذى للخلق من المعارف مقصود فلهم من الله سبحانه موجود ، فانهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال) ٠

وهذا عجيب جدا ، فأين عمل العقل فى تأسيس العقيدة وتصحيحها وتنقيتها من غلس الاباطيل ، وحمايتها من الشبه والاضاليل ؟

وهل يمكن لكل مريد أن يصل باقتصاره على مذهب المتصوفة وعدم نظره فى مذاهب الفقه والكلام ان يعرف أحكام النوازل فى العبادات والمعاملات ، وأن يحمى عقيدته من تشويش أهل البدع والضلال ؟

وأين عمل الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة الذى كان طريق الصحابة وطريق التابعين من الفقهاء والمحدثين والمفسرين من ائمة الهدى والدين قبل ظهور المتصوفة والتصوف ؟

وهل كان أبو على الدقاق ، وهو الامام الصوفى الراسخ فى العلم والعمل ، شيخ أبى القاسم ومربيه على طريقة القوم حينما أرشده الى الاشتغال بالعلم فى مطلع حياته يقصد بالعلم غير دراسة مذاهب العلماء فى علوم الشريعة النقليه والعقلية من الفقه والحديث والتفسير والكلام ، وهى العلوم التى نبغ فيها أبو القاسم القشيرى ، وخلف فى موضوعاتها للعالم الاسلامى مصنفات تعد بين العلماء مراجع لها المكان المرموق من الاعتبار والتقدير ؟

وهل كان هذا الامام المتصوف الضليع فى طريق القلوب — وهو يشهد تلميذه أبو القاسم يتردد بين مجلسه ومجالس أئمة وقته فى علوم الشريعة من اضراب الاسفراييني والطوسى ، وابن فورك غير ناصح لمريده وتلميذه ؟

كلا ، لا هذا ، ولا ذاك ؛ وانما هو حكم العصر والبيئة والمجتمع ؛ عصر أبى القاسم القشيرى ، ومجتمع الاسلام فى ذلك العصر ، هو الذى دفع أبا القاسم الى أن يكتب هذا فى رسالته نصيحة لمريدى المتصوفة ، وخشية عليهم أن تتخطفهم ذئاب الجدال والمراء من طوائف الابتداع والتفلسف ، وخشية أن يقضى عليهم فراغ القلوب من تقوى الله وخشيته بالاشتغال بتفريغ مسائل الفقه التى لم تقع نوازلها فى الحياة : وهو عصر شهد فيه أبو القاسم شدائد المحن والبلايا التى حملته وحملت كثيرا من أئمة وقته على الهجرة الى المجاورة بمكة المكرمة حتى كشف الله عن المسلمين تلك الغمة وعاد الائمة الى ديارهم مدارسهم ٠

هؤلاء الائمة الاربعه الذين تحدثنا عنهم وعن كتبهم فى هذا الفصل ،

وجعلناهم مرآة لانعكاس أطوار « التصوف » التاريخية فى الاسلام هم الذين وضعوا « التصوف » موضعه من التاريخ فى الاسلام ، وهم الذين تدرجوا به الى أطواره من مهده الى أن شب واستوى مذهبا من مذاهب التفكير فى الاسلام .

فالمحاسبى رحمه الله تعالى امام من أئمة الاسلام ومتكلم من متكلميه الذين نهضوا للرد على أهل الابتداع ، كتب للامة آداب الزهاد والنساك، وما يجب أن يكون عليه العبد فى رعاية حقوق الله ، مستمدا ذلك من الكتاب والسنة وفهم الائمة من الصحابه والتابعين وسلوكهم فى الاخلاص والعمل ليجعل مما كتب نواة لجذب الناس الى منازل الاخلاص وتصفية القلوب ، معتمدا على علمه بالشريعة أصولها وفروعها وتطبيقها ، ولم يكن للتصوف ولا للمتصوفة فى عصره وجود مذهبى خالص يقصد الى تصويره والتحدث عنه ، ومن هنا ولشهرته فى الرد على المبتدعة ذكره أبو طالب المكى من بين المتكلمين ؛ ولم يره من علمائهم علماء الباطن .

وأبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى امام من أئمة المتصوفة ، عليم بالشريعه وآدابها ، كتب للناس آداب المتصوفةوهىفى مهدها لمتستكمل شخصيتها الاستقلالية فهى تعيش مع الفقهاء فى مذاهبهم ومع المتكلمين فى طرائقهم الاولى قبل منطق الفلسفة ومع المحدثين فى سلوكهم ، ومع المفسرين فى اتجاهاتهم ، ولكنها مع ذلك ليست مغمورة المعالم بينهم ، بل كان لها سماتها فى التطبيق والعمل ، والتنسك والتعبد .

ولذلك كانت كتابة أبى سعيد رضى الله عنه مزيجا من مصادر الشريعة الصافية ، مجملة بشواهد التطبيق العملى فى دائرة صدق المراقبة والاخلاص .

وأبو طالب المكى رحمه الله تعالى كان عليما بالتصوف كمذهب يستمد خصائصه الاولى من الشريعة المطهرة أصولها وفروعها ، كتب ليبين للناس أن علم التصوف هو خلاصة علم الشريعة ، وأن عمل المتصوفة هو ثمرة العمل بالشريعة ، وأن هذا العمل اذا قام على الاخلاص والمراقبه فتح أبوابا من المعرفة والعلم ، لا تفتح بغير المجاهدة والصبر على مشقة التعبد ومحاسبة النفس على خطراتها ، وأن هذه الابواب من العلم والمعرفة لا يقوم عليها الا من نور الله قلبه ، وأراه بعين بصيرته من المعارف والعلوم ما لا يراه الواقفون مع عقولهم عند ظواهر النصوص ، وهذا ما يسميه علم الباطن ، ولكنه يربطه بعلم الشريعة برباط لا ينفصم .

أما الامام أبو القاسم القشيرى فقد كان رحمه الله تعالى فى رسالته صورة صادقة للتصوف فىذروة مراحله ، ونهايةأطواره ، كمذهبمستقل

بين مذاهب الاسلام فى طريقة تفكيره فى الاعتقاد والتعبد ، وصورة صادقة للمتصوفة كفرقة من فرق المسلمين ، لها طريقتها الخاصة فى فهم النصوص وتأسيس العقيدة وتطبيق أصولها وفروعها فى الاعمال والمجاهدات .

وكل من جاء بعد القشيرى اما آخذ منه ما تح بدلوه ، نازع من منبعه ؛ وأما مفلسف لما أخذ منه ؛ مستمطر غيثه ؛مستظل بظله ؛ واما هارب من طريقه متستر تحت بعض أفكاره ومبادئه .

وهؤلاء الهاربون هم الذين فلسفوا التصوف وعقدوا طرائقه ، وأدخلوا عليه غرائب العقائد الوثنية ، وشذردات النحل والمذاهب الالحادية ، كالذين هموا بوحدة الوجود ، أو الذين قالوا باسقاط التكاليف عن عارفيهم الواصلين الى الالحاد والاباحية من كل ما يخالف أصول الاسلام وعقائده .

تصوف الغزالى

جاء الغزالى فوجد التصوف مذهبا قائم الدعائم ، واضح المعالم بأصوله وقواعده العلمية ومؤلفاته الضافية ، ووجد المتصوفة فرقة من المسلمين لها خصائصها المميزة ، ولها كيانها المستقل فى طريقة تأسيس عقائدها ، وفى طريقة تعبدها ، بل وجدها فى بلده ، وفى بيته ، حضنته بآدابها وسلوكها طفلا ، ووجهته بصدقها فى المعاملة مع الخلق الى الاشتغال بالعلم ، فعن طريقها على يد شيخه وصى أبيهعليهوعلى أخيهعرف طريقه الى المدارس العلمية ، وجلس فى حلقاتها يسمع من أئمتها الفقه فى بلده طوس ، وفى جرجان ثم يرحل الى أستاذ عصره امام الحرمين فيلقاه فى نظامية نيسابور ، يحف حوله طائفة من أذكياء الشباب ، يأخذون عنه أصول الفقه وأصول الدين ، والمنطق ، والحكمة ويتعلمون منه طرائق الجدل والمناظرة فيزاحمهم الغزالى وهو غض الشباب حتى زحمهم ، ونافسهم على علوم الامام حتى غلبهم ، وتشبع حتى تضلع ، ولما توفى أستاذه رحل الى نظام الملك الوزير العالم الصوفى ، فوجد للصوفية عنده مقامهم الذى لا يسامى فخالطهم وعاشرهم ، وجلس الى حلقاتهم ونظر الى سهرهم الليل وظمأهم بالنهار قياما لله بحق العبودية ، وسمع كلامهم ، واستطلع بواطنهم واستجلى أنوارهم ، ثم رحل الى بغداد وعاد الى نيسابور فوجدهم قياما فى خلواتهم على قدم الاخلاص ، طرحوا الدنيا بما فيها من أهواء وشهوات وسمعة وجاه ، وسلطان ، وتعزز بالعلم،وكان الغزالى قد بلغ من ذلك كله المبلغ الذى ليس فوقه درجة لمستزيد وليس

وراءه غاية لمريد ، ذكاء خارق وعلم غزير ، جمع كافة معارف عصره ، وهو عصر كان أجمع العصور للعلم بأنواعه والمعرفة على سائر ضروبها ، الى جاه عريض وسلطان ينافس سلطان الخلفاء والامراء في الدولة ، وغلبة في الجدل والمناظرة ورياسة في التدريس ، وشهرة طبقت الشرق والغرب ، وسمعة ملات آفاق الارض .

ثم ماذا ؟ انها عناية الله تعالى هي التي وجهت الغزالي الى الانضواء تحت لواء طائفة الصوفية بعد هذا الاستعداد العلمي العظيم الذى انفرد به الغزالي في عصره حتى لقب بحجة الاسلام .

وخصيصة الغزالي انه مفكر ثائر ، لا يؤمن حتى يفهم ولا يفهم حتى يدرس ويبحث وقد درس وعلم وفهم وحصل ، كل ما وعته العقول والافكار ، ونظر الى نفسه بعد كل ذلك فظهر له كما يقول (انه لا مطمع له في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلايق ، ثم انى لاحظت أحوالي فاذا انا منغمس في العلايق ، وقد احدقت بي من الجوانب،ولاحظت أعمالي واحسنها التدريس والتعليم فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثهاومحركها طلب الجاهوانشار الصيت فتيقنت انى على شفا جرف هار ، وانى قد اشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال) .(١)

وصمم العزم واقبل بهمته على طريق الصوفية ، وعلم ان طريقتهم انما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر عليه من العمل .

وهكذا آمن الغزالي بالصوفية والتصوف ، وآمن ان فيها دواءه من أمراض الدنيا وشهواتها وانهما الطريق الموصل الى الله ، والسبيل المؤدى الى الفوز في الآخرة برضوانه .

ولكن الغزالي ربيب العلم والمعرفة ، صاحب العقل العبقري ، لا يمكن ان يسلك طريقا الا بعد ان يجوسه بعلمه ، ويختبره بعقله ، فأتجه الى علوم الصوفية فوجدها ممهدة في كتب المحاسبي ، وأبي طالب المكي ، وابى القاسم القشيري،وفى المتفرقات المأثورةعن أكابرهم يتلقاها بالسماع

(١) المنقذ من الضلال

من ثقافتهم ، فعكف على هذا المحصول العلمى يدرسه ويبحثه حتى أطلع على كنه مقاصد أصحابه ، وظهر له انهم خصوا بما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحــــال وتبدل الصفات ، وعلم الغزالى يقينا ان الصوفية أرباب احوال لا اصحاب اقوال ، وان مايمكن تحصيله من علومهم بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق الا مالا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

يقول الغزالى : وكان قد حصل معى من العلوم التى مارســـــتها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت فى نفسى لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

لم يتعب الغزالى رحمه الله تعالى فى تحصيل علوم الصـــوفية لان علومه التى كانت معه وايمانه بعلوم الصـــوفية وأحوالهم يسر عليـــه التحصيل من اقرب طريق .

بيد أنه تعب فى مجاهدة النفس وصرفها من مانوســـها مما كان منغمسا فيه من أمور الدنيا التى وصفها ، فاجتمع بأشياخ الصوفية وسلم اليهم قياده يرشدونه ويربونه ويلاحظونه فى ترقياته وأحواله ، فيمتثل أمرهم ويسمع قولهم ، ويلبى اشاراتهم . يقول الزبيدى فى شرح الاحياء وهو مأخوذ من كلام عبد الغافر الفارسى كما تقدم (فاقتدى بصـــحبة الفارمدى واستفتح منه الطريقة ، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان فى النوافل ، واستدامة الاذكار ، والجـــــد والاجتهاد الى ان جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشاق وما تحصل على ما كان يطلبه) .

وقد سبق ان اشرنا الى أخذه عن شيخه يوسف النساج ، وانتهى الى أنه فتح عليه فتحا علميا لا فتحا لدنيا ، وأنه ادرك ان الكتابة على الصفاء الاول أثبت من الكتابة على المحو بعد الاثبات .

لكن الغزالى يقول فى (المنقذ من الضلال) : وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى اذكره لينتفع به انى علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعـــالى خاصة وان سيرتهم احسن السير ، وأن طريقتهم أصوب الطرق واخلاقهم ازكى الاخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا الى ذلك سبيلا ، وان جميع حركاتهم وسكناتهم فى

ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوه على وجه الارض نور يستضاء به ٠

ثم يقول الغزالى ، وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها ـ وهى أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجازى منها مجرى التحريم من الصلوات استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ، وهذا آخرها بالاضافة الى ما يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهى على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه ، ومن أول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات ، حتى انهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول التعبير عنها معبر الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه ٠

ثم قال : وعلى الجملة ينتهى الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بينا وجه الخطأ فى كتاب (المقصد الاسنى) ٠

والغزالى الذى يؤمن بالصوفية هذا الايمان الذى جر عليه نقد المتفقهة والمحدثين ، ورموه بسببه عن قوس واحدة من سهام من الطعن والتجريح مما قدمنا بعضه ، لا يلغى عقله مع السادة الصوفية اذا وصل الامر الى أساس العقيدة التى قضى عمره ينافح عنها ويكافح فى سبيلها جميع الطوائف والفرق ، ولا يترك علمه ومنطقه العقلى الذى اسس عليه الجدال فى سبيل الدفاع عن العقيدة حتى حصنها تحصينا قويا ووقف يحميها ويذود عنها حتى لقبته الامة كلها (حجة الاسلام) ٠

والذى أشار اليه من بيان الخطأ على ما يتخيله من انتهى به الامر الى القرب من الحلول والاتحاد والوصول هو الذى وقع فيه كثير ممن ذلت أقدامهم ، والغزالى يذكر فيهم بعض الاكابر ويرد عليهم ونحن نسوق هذا الرد لبيان أن الغزالى لم يستطع ان ـ يتخلى عن علومه الكلامية ، وهى التى كانت حصنه الذى حفظه عن الوقوع فيما وقع فيه غيره ٠

قال الغزالى فى شرح أسماء الله الحسنى بعد أن ذكر ردف كل اسم شرحه تنبيها على ما للعباد من حظ فى هذا الاسم ٠ (ولقد سمعت الشيخ أبا على الفارمدى يحكى عن شيخه أبى القاسم الكركانى قدس الله روحهما انه قال : ان الاسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك وهو يعد فى السلوك غير واصل وهذا الذى ذكره ان أراد به شيئا يناسب ما أوردناه فهو صحيح ، ولا يظن به الا ذلك ويكون فى اللفظ نوع من

التوسع والاستعارة فان معاني الاسماء هي صفات الله تعالى وصفاته الا نصير صفة لغيره ولكن معناه انه يحصل له ما يناسب تلك الاوصاف كما يقال فلان حصل علم استاذه وعلم الاستاذ لا يحصل للتلميذ بل يحصل له مثل علمه ، وان ظن ظان ان المراد به ليس ما ذكرناه فهو باطل قطعا فانى أقول : القائل ان معاني اسماء الله صارت أوصافا له لا يخلوا اما انه عنى به غير تلك الصفات او مثلها فان عنى به مثلها فلا يخلو اما انه عنى به مثلها مطلقا من كل وجه ، واما ان عنى به مثلها من حيث الاسم والمشاركة في عموم الصفات دون خواص المعاني فهذان قسمان وان عنى به عينها فلا يخلو اما ان يكون بطريق انتقال الصفات من الرب الى العبد أولا بالانتقال فان لم يكن بالانتقال فلا يخلو اما أن يكون باتحاد ذات العبد بذات الرب حتى يكون هو هو فيكون صفاته صفاته ، واما ان يكون بطريق الحلول وهذه أقسام ثلاثة وهو الانتقال والاتحاد والحلول فهذه خمسة أقسام الصحيح منها قسم واحد وهو ان يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة وتشاركها في الاسم ولكن لا تماثلها مماثلة تامة كما ذكرناه في التنبيهات وأما القسم الثاني وهو ان يثبت له أمثالها على التحقيق فمحال فان من جملتها ان يكون له علم محيط بجميع المعلومات حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السموات وأن يكون له قدرة واحدة تشمل جميع المخلوقات حتى يكون بها خالق السموات والارض وما بينهما وكيف يتصور هذا لغير الله تعالى ! وكيف يكون العبد خالق السموات والارض وما بينهما وهو جملة ما بينهما ! فكيف يكون خالق نفسه ثم ان ثبتت هذه الصفات لعبدين يكون كل واحد منهما خالق صاحبه فيكون كل واحد منهما خالق من خلقه وكل ذلك ترهات ومحاولات .

وأما القسم الثالث وهو انتقال عين صفات الربوبية فهو أيضا محال لان الصفات يستحيل مفارقتها للموصوفات وهذا لا يختص بالذات القديمة بل لا يتصور أن ينتقل عين علم زيد الى عمرو بل لا قيام للصفات الا بخصوص الموصوفات ولان الانتقال يوجب فراغ المنتقل عنه فيوجب ان تعرى بالذات التي كان عنها انتقال الصفات الربوبية عن الربوبية وصفاتها وذلك أيضا ظاهر الاستحالة .

وأما القسم الرابع وهو الاتحاد فذلك أيضا أظهر بطلانا لان قول القائل ان العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجرى اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات ونقول قولا مطلقا أن قول القائل ان شيئا صار شيئا آخر محال على الاطلاق لانا نقول اذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل ان زيدا صار عمرا واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد اما أن يكونا كلاهما موجودين أو كلاهما معدومين أو زيد موجود وعمرو معدوم أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء

هذه الاربع فان كانا موجودين فلم يصير أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وانما الغير ان يتحد مكانهما وذلك لا يوجب الاتحاد فان العلم والارادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا تتباين محالها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الارادة ولا يكون قد اتحد البعض بالبعض وان كانا معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث وان كان أحدهما معدوماً والاخر موجودا فلا اتحاد اذ لا يتحد موجود بمعدوم فالاتحاد بين الشيئين مطلقا محال هذا جار في الذوات المتماثلة فضلا عن المختلفة فانه يستحيل أن هذا السواد ذاك السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم ، والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والعلم فأصل الاتحاد إذا باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو ولا يكون الا بطريق التوسع والتجوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء فانهم لاجل تحسين موقع الكلام من الافهام يسلكون سبيل الاستعارة كما يقول الشاعر :

(أنا من أهوى ومن أهوى انا)

وذلك مؤول عند الشاعر فانه لا يعني به أنه هو تحقيقا بل كأنه هو فانه مستغرق الهم به كما يكون هو مستغرق الهم بنفسه فيعبر عن هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجوز وعليه ينبغي أن يحمل قول أبي يزيد حيث قال انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فاذا أنا هو ويكون معناه أن من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها فلا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له هم سوى الله تعالى فاذا لم يحل في القلب الا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقا به يصير كأنه هو لا أنه هو تحقيقا .

وفرق بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو ، لكن قد يعبر بقولنا هو هو عن قولنا كأنه هو كما أن الشاعر تارة يقول كأني من أهوى وتارة يقول أنا من أهوى وهذه مزلة قدم فان من ليس له قدم راسخة في المعقولات ربما لم يتميز له أحدهما عن الآخر فينظر الى كمال ذاته وقد تزين بما تلألأ فيه من حلية الحق فيظن أنه هو فيقول انا الحق وهو غالط غلط النصارى حيث رأوا ذلك في ذات عيسى عليه السلام فقالوا هو الاله بل غلط من ينظر الى مرآة قد انطبع فيها صورة متلونة فيظن أن تلك الصورة هي صورة المرآة وان ذلك اللون لون المرآة وهيهات . بل المرآة في ذاتها لا لون لها وشأنها قبول صور الالوان على وجه يتخايل الى الناظرين الى ظاهر الامور أن ذلك هي صورة المرآة حتى أن الصبي اذا رأى انسانا في المرآة ظن أن الانسان في المرآة فكذلك القلب خال عن الصور في نفسه وعن الهيئات وانما هيئته قبول معاني الهيئات والصور والحقائق فما يحله يكون

كالمتحد به لا انه متحد به تحقيقا ومن لا يعرف الزجاج والخمر اذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما فتارة يقول لاخمر وتارة يقول لازجاجة كما عبر عنه الشاعر حيث قال :

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الامــر
فكانما خمـــر ولا قدح وكأنما قــدح ولا خمـــر

وقول من قال منهم :

أنا الحق فاما أن يكون معناه معنى قول الشاعر

أنا من أهوى ومن أهــوى أنا

واما ان يكون قد غلط فى ذلك كما غلطت النصارى فى ظنهم اتحاد اللاهوت بالناسوت وقول ابى يزيد ان صح عنه (سبحانى ما أعظم شأنى) اما أن يكون ذلك جاريا على لسانه فى معرض الحكاية عن الله تعالى كما لو سمع وهو يقول (لا اله الا أنا فاعبدنى) لكان يحمل على الحكاية واما أن يكون قد شاهد كمالا لاحظه من صفة القدس على ما ذكرنا فى الترقى بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات وبالهمة من الحظوظ والشـــهوات فأخبر عن قدس نفسه فقال سبحانى ورأى عظم شأنه بالاضافة الى شأن عموم الخلق فقال ما أعظم شأنى وهو مع ذلك يعلم ان قدسه وعظم شأنه بالاضافة الى الخلق فلا نسبة له الى قدس الرب تعالى وعظم شأنه ويكون قد جرى هذا اللفظ على لسانه فى سكر وغلبة حــال فأن الرجـــوع الى الصحو واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الالفاظ الموهمة وحـــال السكر ربما لا يحتمل ذلك فان جاوزت هذين التأويلين الى الاتحاد فذلك محال قطعا فلا تنظر الى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال بل ينبغى ان تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

(وأما القسم الخامس) وهو الحلول فذلك يتصور بأن يقال ان الرب حل فى العبد أو العبد حل فى الرب تعالى رب الارباب عن قـــول الظالمين وهذا لو صح لما أوجب الاتحاد ولا ان يتصف العبد بصـــفات الرب فان صفات الحال لا تصير صفة المحل بل تبقى بصفة الحال كما كان ووجـــه استحالة الحلول لا يفهم الا بعد فهم معنى الحلول فان المعانى المفـــردة اذا لم تدرك بطريق التصور لم يمكن ان يعلم نفيها أو اثباتها فمــن لا يدرى معنى الحلول فمن أين يدرى أن الحلول موجود أو محال فنقول المفهوم من الحلول أمران احدهما النسبة التى بين الجسم وبين مكانه الذى يكـــون فيه وذلك لا يكون بين الا جسمين فالبرىء عن معنى الجسمية يســـتحيل فى حقه ذلك . والثانى النسبة التى بين العرض والجوهر فان العـــرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما

قوامه بنفسه فدع عنك ذكر الرب تعالى فى هذا المعرض فان كل ماقوامه ينكشف له جلية الحق ويصير مستغرقا به فان نظر معرفته فلا يعرف الا بنفسه يستحيل أن يحل فى ما قوامه بنفسه الا بطريق المجاورة الواقعة بين الاجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبدوالرب تعالى واذا بطل الحلول والانتقال والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله تعالى على سبيل الحقيقة لم يبق لقولهم معنى ألا ما اشرنا اليه فى التنبيهات وذمك يمنع من اطلاق القول بأن معانى اسماء الله تصير اوصافا للعبد الا على نوع من التقييد خال عن الايهام والا فمطلق هذا اللفظ موهم

فان قلت فما معنى قوله ان العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سالك لا واصل فما معنى السلوك وما معنى الوصول ؟

فاعلم ان السلوك هو تهذيب الاخلاق والاعمال والمعـــارف وذلك اشتغال بعبارة الظاهر والباطن والعبد فى ذلك مشغول بنفسه عن ربه الا انه مشتغل بتصفيته باطنه ليستعد للوصول وانما الوصول هو ان ينكشف له جلية الحق ويصير مستغرقا به فان نظر الى معرفته فلا يعرف الا الله تعالى وان نظر الى همته فلا همة له سواه فيكون كله مشـــغولا بكله مشاهدة وهما لا يلتفت فى ذلك الى نفسه ليعم ظاهره بالعبادة وباطنـــه بتهذيب الاخلاق وكل ذلك طهارة وهى البداية وانما النهاية ان ينسلخ من نفسه بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو ، وذلك هو الوصول ..

فان قلت الكلمات الصوفية تنبىء عن مشاهدات انفتحت لهم فى طور الولاية والعقل يقصر عن درك الولاية وما ذكرتموه تصرف ببضاعة العقـــل ..

فاعلم انـــه لا يجوز ان يظهر فى طور الولاية ما يقضى العقـــل باستحالته نعم يجوز ان يظهر فيها ما يقصر العقل عنه بمعنى انه لايدركه بمجرد العقل . مثاله انه يجوز ان يكاشف الولى بأن فلانا سيموت غدا ولا يدرك ببضاعة العقل بل يقصر العقل عنه ولا يجوز ان يكاشف بأن الله غدا سيخلق مثل نفسه فان ذلك يحيله العقل لا انه يقصر عنه وابعد من ذلك ان يقول : ان الله سيجعلنى مثل نفسه وأبعد منه ان يقول : ان الله سيصيرنى نفسه أى أصير أنا هو ، لان معناه انى حادث والله يجعلنى قديما ولست خالق السموات والارضين والله يجعلنى خالق السمـــوات والارضين وهـــذا معنى قوله نظرت فاذا أنا هـــو ، اذا لم يؤول وحمل على ظاهره ، ومن صدق بمثل هذا المحال فقد انخلع عن غـــريزة العقل ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم فليصدق بأنه يجوز ان يكاشف ولى بأن الشريعة باطلة وانها وان كانت حقا فقد يقلبها الله باطلا وانه جعل جميع اقاويل الانبياء كذبا وان من قال يستحيل ان ينقلب الصدق كذبا فانما يقول ببضاعة العقل فان انقلاب الصدق كذبا ليس بأبعد من انقلاب

الحادث قديما والعبد ربا ومن لا يفرق بين ما أحاله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخس من أن يخاطب فليترك وجهله .

قلنا : هذا فصل مهم جدا فى بيان صوفية الغزالى ذكرناه بطوله لانه يبين بيانا شافيا أن الغزالى رحمه الله دخل فى الصوفية بعلمه وعقله وان تضلعه من علم الكلام ومنطق العقل جعله الا يقبل فى عقيدته مالا يقره عقله ولا يرضاه علمه ، مهما كان مقام من صدر عنه ذلك ، فاعتداد أبى حامد بعلمه وعقله حصنه من مزالق الجموح عند الصوفية وجعله يردد فى كتبه تلك الكلمة النابغة الحكيمة الجليلة (لا تنظر الى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال ، بل ينبغى أن تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال)

للغزالى فصل آخر فى كتاب (المقصد الاسنى) تكلم فيه على معرفة الله تعالى عند الصوفية ، ورفع عنهم الاشتباه الذى قد توهمه بعض عبارات منسوبة الى أكابرهم فقال : (ان خاصية الإلهية انه الموجود الواجب بذاته التى عنها يوجد كل ما فى الامكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال ... وهذه الخاصية ليست الا لله تعالى ولايعرفها الا الله تعالى ، ولا يتصور أن يعرفها الا هو أو من كان مثله ، واذا لم يكن له مثل فلا يعرفها غيره .

فاذا الحق ما قاله الجنيد رحمه الله تعالى ، حيث قال : (لا يعرف الله الا الله تعالى) ولذلك لم يعط أجل خلقه الا أسماء حجبه بها فقال : سبح اسم ربك الاعلى ، فوالله ما عرف الله غير الله تعالى فى الدنيا والآخرة

وقيل لذى النون ، وقد أشرف على الموت ، ماذا تشتهى ؟ فقال (ان أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة) وهذا الآن يشوش قلوب أكثر الضعفاء ويوهم عندهم القول بالنفى والتعطيل ، وذلك لعجزهم عن فهم مثل هذا الكلام .

وأنا أقول : لو قال القائل : لا أعرف الا الله تعالى ، كان صادقا ، ولو قال : لا أعرف الله تعالى لكان صادقا . ومعلوم . ان النفى والاثبات لا يصدقان معا ، بل يتقاسمان الصدق والكذب ، فان صدق النفى كذب الاثبات وبالعكس ، ولكن اذا اختلف وجه الكلام تصور الصدق فى القسمين ...

فان قلت : فقولنا : انه الواجب الوجود الذى عنه وحده يوجد كل ما فى الامكان وجوده عبارة عن حقيقته ، وقد عرفنا هذا ؟ فأقول : هيهات هيهات ، فان قولنا : واجب الوجود عبارة عن استغنائه عن العلة والفاعل ، وهذا يرجع الى سلب السبب عنه ، وقولنا : يوجد عنه كل ما ، يرجع الى اضافة الافعال الى الله تعالى ...

فان قيل : فما السبيل الى معرفته ؟ فأقول : لو قال لنا صبى أو عنين ما السبيل الى معرفة لذة الوقاع وادراك حقيقته ؟ قلنا : هاهنا

سبيلان ، أحدهما أن نصفه لك حتى تعرفه ، والآخر أن تصبر حتى تظهر فيك غريزة الشهوة ثم تباشر الوقاع حين تظهر فيك لذة الوقاع فتعرفه، وهذا السبيل الثاني هو السبيل المحقق المفضى الى حقيقة المعرفه ، فاما الاول فلا يفضى الا الى توهم وتشبيه للشيء ان يسمى لذه ، ومهما ظهرت الشهوة وذاق علم قطعا انه لا يشبه حلاوة السكر ، وأن ما كان توهمه لم يكن على الوجه الذى توهمه ...

وكذلك لمعرفة الله سبيلان ، أحدهما قاصر ، والاخر مسدود ؛ أما القاصر فهو ذكر الاسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفناه من انفسنا فانا عرفنا أنفسنا قادرين عالين احياء متكلمين ، ثم سمعنا ذلك فى أوصاف الله ، وعرفنا بالدليل ففهمناه فهما قاصرا كفهم العنين لذة الجماع بما وصف له من لذة السكر .. وفائدة تعريف الله تعالى بهذه الاوصاف ايضا ايهام، وتشبيه ، ومشاركة فى الاسم بما لا يشبهه ... أما الايهام فانه يتوهم أن ذلك أمر طيب على الجملة ، وأما التشبيه فهو أنه شبهه بحلاوة السكر فى الاسم ، لكن نقطع التشبيه بأن يقال ليس كمثله شىء فهو حى لا كالاحياء وقادر لا كالقادرين ... وأما السبيل المسدود فهو أن ينتظر العبد أن تحصل له صفات الربوبية كلها حتى يصير ربا ، كما ينتظر الصبى أن يبلغ فيدرك لذة الوقاع ، وهذا السبيل مسداد ممتنع ، اذ يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى ، وهذا هو السبيل الى المعرفة المحققة لاغير ، وهو مسدود قطعا الا على الله تعالى وتقدس وحده ، فاذا يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله تعالى ...

فكيف يتعجب المتعجبون من ولنا : لم يحصل أهل الارض والسماء من معرفة الله الا على الاسماء والصفات ؟...

فان قلت : فما نهايه معرفة العارفين بالله تعالى ؟ فنقول : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هى أنهم يعرفونه وانهم لا يمكنهم البتة معرفته فانه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية الا الله تعالى ، فاذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا كما ذكرناه فقد عرفوه الى بلوغ المنتهى الذى يمكن فى حق الخلق من معرفته ، وهو الذى أشار اليه الصديق الاكبر حيث قال : (العجز عن درك الادراك ادراك) بل هو الذى عناه سيد البشر صلوات الله تعالى عليه وسلامه حيث قال : (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ولم يرد أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه فى العبارة عنه ، بل معناه : أنى لا أحيط بمحامدك وصفات الهيتك ، وانما أنت المحيط بها وحدك ...

ويتفاوت الخلق فى معرفة الله تعالى بقدر ما انكشف لهم من معلومات

الله تعالى وعجائب مقـــدوراته وبدائع آياته في الدنيا والآخـــرة والملك والملكوت .

فاذا قد عرفت كيف تتفاوت الخلق في بحار معرفة الله ، وان ذلك لا نهاية له وعرفت أن من قال : لا يعرف الله الا الله فقد صدق ، ومـن قال : لا أعرف الا الله فقد صدق ، فانه ليس في الوجود الا الله وأفعاله .

ثم ختم الامام الغزالى هذا الفصل بقوله : (ولنقبض عنان البيان فقد خضنا لجة بحر لا ساحل له ، وامثال هذه الاسرار لا ينبغى أن تبتذل بايداعها الكتب ، واذ جاء عرضها عن غير مقصود للمتكلف عنه .

والغزالى رحمه الله تعالى دخل الصوفية على قدم المجاهدة والرياضة والقيام لله تعالى بحق العبودية من استـــدامة الاذكار والجد فى وظائف العبادات — والامعان فى النوافل وتكلف المشاق فى محاســبة النفس ومراقبتها حتى كان هذا النهج معروفا به منســوبا اليه بين طوائف المتصوفين .

ومن هنا عقد بعض متأخرى الصوفية موازنة بين طريق الغزالى ، وطريق غيره من أرباب القلوب ، قال ابن المبارك السجلماسى فى كتـــاب الابريز : سئل الشيخ العارف عبد العزيز الدباغ : ما الفرق بين طريقـة الولى العارف الشاذلى واتباعه . وطريقة الغزالى وأتباعه حتى أن الاولى مدارها كلها على الشكر والفرح بالمنعم من غير مشقة ولا كلفة والاخـــرى مدراها على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع وغيرهما فهل همـــا سيدى متوافقان على الرياضة وانما يأمر الشاذلى بالشكر بعد القرب للوصول أو عنده ، أو هو أمر بالشكر والفرح بالله من أول وهلة وحين البداية وهل الطريقان يمكن سلوكهما لرجل واحد أولا يمكن أن ينتفع باحداهمـــا الا بالاعراض عن الاخرى .

فأجاب رضى الله عنه بأن طريقة الشكر هى الاصلية وهى التى كانت عليها قلوب الانبياء والاصفياء من الصحابة وغيرهم وهى عبادة الله على اخلاص العبودية والبراءة من جميع الحظوظ مع الاعتراف بالعجز والتقصير وعدم توفية الربوبية حقها ويكون ذلك رقى القلب على ممر الساعات والازمان فلما علم تبارك وتعالى الصدق فى ذلك اثابهم بما يقتضيه كرمه من الفتح فى معرفته ونيل اسرار الايمان به عز وجل .

فلما سمع أهل الرياضة بما حصل لهؤلاء من الفتح جعلوا ذلك هو مطلوبهم ومرغوبهم فجعلوا يطلبونه بالصيام والقيام والســـهر ودوام الخلوة حتى حصلوا على ما حصلوا ، فالهجرة فى طريق الشكر كانت من أول الامر الى الله والى رسوله لا الى الفتح ونيل الكشـــوفات ، والهجرة فى طريق الرياضة كانت للفتح وهو فى الاولى هجوم لم يحصـــل من العبد

تشوق اليه فبينما العبد فى مقام طلب التوبة والاستغفار من الذنوب اذ جاءه الفتح المبين والطريقتان على صواب لكن طريقة الشكر أصـــوب واخلص والطريقتان متفقتان على الرياضة لكنها فى الاولى رياضة القلوب بتعلقها بالحق سبحانه والزامها العكوف على بابه والالتجا الى الله فى الحركات والسكنات والتباعد عن الغفلة المتخللة بين أوقات الحضور .

وبالجملة فالرياضة فيها تعليق القلب بالله عز وجل على الدوام وان كان الظاهر غير متلبس بكبير عبـــادة ولذا كان صـــاحبها يصـــوم ويفطر ويقوم وينام ويقارب النساء ويأتى بسائر وظـائف الشرع التى تقتضيها رياضة الابدان .

ثم قال الشيخ الدباغ والغزالى امام حق وولى صادق ولاتنافى بين الطريقتين فيمكن للعبد أن يعلق قلبه بالله عز وجل فى ســائر حركاته وسكناته ويقيم ظاهره فى المجاهدة والرياضة .

ويظهر لنا أنهما منهجان عند المتصوفة ، عبر عنهما الامام العليم أبو سعيد الخراز فى قوله فى بيان المعرفة والطريق الموصل اليها انها (تأتى من عين الجود ، ومن بذل المجهود) .

وقد كتب الغزالى رحمه الله تعالى فى « التصوف » كما كتب فى غيره من سائر الفنون والعلوم ، والمعروف المتعالم ان اشهر كتبه فى « التصوف » هو أعظمها على الاطلاق كتاب (احياء علوم الدين) وقد شـــغل الناس خاصتهم وعامتهم بهذا الكتاب ، ولا يزالون يشتغلون به ، وذكرنا مـــا للعلماء فيه من نقد أو مدح .

(وكتاب الاحياء) فى جلالة قدره لاينكر الغزالى ان الناس صنفوا فى بعض معانيه ، ولكنه يذكر ان كتابه يمتاز عن مصنفات الناس فى موضوعه بخمسة أمور :

الاول — حل ماعقدوه وكشف ما أجملوه .

الثانى — ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه .

الثالث — ايجاز ماطولوه وضبط ما قرروه .

الرابع — حذف ما كرروه واثبات ما حرروه .

الخامس — تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الافهام لم يتعرض لها فى الكتب اصلا اذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلامستنكر ان يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لامر يخصه ، ويغفل عنه رفقاؤه ، أولا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن ايراده فى الكتب ، أولا يســـهو ولكن

يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ، فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاويا لمجامع هذه العلوم ٠

والناظر فى كتاب (الاحياء)مع نظره فى كتب أئمة الصوفية الاربعة (المحاسبى ـ الخراز ـ أبى طالب المكى ـ القشيرى) وهم الذين تعرضنا لهم والتنبيهم باعتبارهم الذين قيدوا المذهب المتصوفة بعد تبديده وضبطوه بعد انتشاره ، ونظموه بعد انتشاره حتى اكتملت مقوماته واستقامت دعائمه فى مؤلفاتهم ، يرى ان كتب أولئك الائمة كانت مراجع للامام الغزالى فى تأليف (الاحياء) الى جانب علمه الغزير وعقله الكبير

وفى خزائن الصوفية يجد الباحثون مفتاح شخصية الغزالى رحمه الله لا باعتبار انه صوفى اعتنق الصوفية مذهبا ، فكتب فى أحوال أهلها ومقاماتهم ، ووطد دعائم علومهم وانما باعتبار انفرد به الغزالى عن سائر الصوفية ، بل عن سائر العلماء ٠

ذلك هو ما نسميه (فقه النفس) فالغزالى (فقيه النفس)عبقرى العقل ، ونعنى بفقه النفس غوصه على أسرار الشريعة ، وبيان حكم احكامها بحقائق قلبية وأمور روحية تجعل من هذه الاحكام غايات محببة تنهض اليها النفوس راغبة محبة ، وذلك ما نجده فى كثير من كتب الغزالى ، ولا سيما درتها اليتيمة (الاحياء)ففيه من أسرار الشريعة مالم يوجد فى غيره من كتب الصوفية ولا كتب الفقهاء ، والى هذا المعنى العظيم فى الغزالى يرجع انتهاؤه الى الصوفية واعتصامه بها حتى لقى الله على خير حالاتها صوفيا عليما ، وعليما صوفيا ٠

هل شـــك حجة الاســـلام

يجمع باحثو الغزالى على أنه رحمه الله شك وأمعن فى الشك ، وهم يعتمدون على اعترافات الغزالى نفسه بأنه (دام قريبا من شهرين كان فيهما على مذهب السفسطة) وبأنه تطلب العلم بحقائق الامور على وجه يقينى ينكشف معه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، وبأنه فتش عن علومه فوجد نفسه عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات وبأنه توجه الى النظر فيهما ليتيقن ان ثقته بالمحسوسات، وأمان الغلط فى الضروريات من جنس ما كان له من قبل فى التقليديات ، ومن جنس أمان أكثر الناس فى النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له ؟

وبأنه أقبل يمتحن المحسوسات والضروريات لينظر هل يمـــكن أن يشككه فيهـــا نفسه ؟ وبأنه انتهى به طـــول التشكيك الى أنه لا ثقة بالمحسوسات ، لان حاسة البصر وهى أقواها تريك الشيء موجودا وهو غير موجود ، والشيء غير موجود وهو موجود ، وتريك الكبـــير صغيرا فبطلت عنده الثقة بالمحسوسات ، فاتجه الى العقليات الاولية ، وقال : لعله لاثقة الا بها ، ولكن المحسوسات اعترضت طريقه فى ثقته بالعقليات ، وأبانت له انه يحتمل أن يكون وراء حاكم العقل حاكم آخر اذا ظهر يكذب العقل فى حكمه وعدم ظهور ذلك لا يدل على استحالته .

وبأنه لما خطرت له هذه الخواطر وانقدحت فى النفس حاول علاجها فلم يتيسر له اذ لم يمكن دفع ذلك الا بدليل ، ولم يمكن نصب دليـــل الا من تركيب العلوم الاولية وهى المحسوسات والعقليات الضرورية ، فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب دليل ، فأعضل عليه هـــذا الداء ، ودام قريبا من شهرين كان فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى ذلك المرض وعادت النفس الى الصحـــة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقا بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف .

هذه هى اعترافات ابى حامد على نفسه فى الشك ملخصة من كتابه (المنقذ من الضلال) والاعتراف ــ كما يقولون أقوى أدلة الاثبات .

وكذلك اعتمد باحثو ابو حامد فى شكه على قوله فى آخر كتابه (ميزان العمل) (ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب فناهيك به نفعا اذ الشكوك هى الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال) .

وهذا تحسين بالغ للشك ، لانه جعله موصلا للحق ، والحق عنده هو اليقين الذى لا ريب فيه ، ولا يمكن معه الغلط ، وجعل الشك طريق النظر الموصل الى ابصار الحقائق للخروج من العمى والضلال .

واذا كان يرى ذلك طريقا لغيره فبالحرى ان يكون طريقه هو الى معلوماته ونحن نقف من هذا الموضوع عند أبى حامد موقف الشك فيه معتمدين على ان بعض الباحثين يرون ان الشك بدأ مع الغزالى منذ انحلت عنه رابطة التقليد فى سن قريبة عهد بسن الصبا ، وقد صرح بذلك الاستاذان (كامل عياد) و (جميل صليبة) فى مقدمتهما لكتاب (المنقذ من الضلال) وذلك كان – فى نظرهما – قبل مغادرته نيسابور للمرة الاولى فى وقت تلمذته لامام الحرمين .

ويرى (ديبور) فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، هذا الرأى ، وبعضهم يذهب الى ان الشك تملك ابا حامد بعد خروجه من نيسابور الى المعسكر فى المدة التى اقامها فى حضرة نظام الملك .

وهذا الاضطراب يدل على عدم تحقيق هذه المسألة فى حياة الغزالى ، فلم يبق الا اصل وجودها المعتمد على اعتراف ابى حامد .

ولنا توجيه فى اعتراف ابى حامد يبرئه من الشك ويصحح الاعتراف ، ذلك ان – أبا حامد يقصد بهذا الكلام الذى شرح فيه اعترافه الى لون من الاسلوب فى الحجاج وكان كثير الخصوم فى الجدل والمناظرات ، فأراد بذلك ان يكسر شوكة خصومه عن طريق الايحاء ، ويحدث هزة فكرية فى المجتمع الذى كان ميدان نضاله ، كما يقصد الى التمهيد الى الجديد من أفكاره حتى يأمن ثورة العامة ، ويقصد الى تشكيك الناس فى الفلسفة التى انتهض للرد عليها ، والفلسفة انما تعتمد على أدلة العقل وبراهينه .

ومما يرشح ما ذهبنا اليه ان الغزالى فى هذه الفترات التى يزعم الباحثون ان الشك تملك فيها الشيخ الامام كان اصح نفسا وأقوى عارضة ، وأصلب قناة أمام خصومه ، والشاك لا يمكن ان تكون معه هذه القوة ، ولكن الغزالى كان قويا مع خصومه ، قويا فى مصنفاته وتآليفه .

وقد تنبه الاستاذ (سليمان دنيا) في كتابه (الحقيقة في نظر الغزالي) الى ذلك فقال ، (وما يثير الدهشة ان شاكا فيالحقيقة يصدر تأليف ايجابية حول الحقيقة ، ويدرس حول الحقيقة تدريسا ايجابيا) .

ثم قال : (لكنني الاحظ على الغزالي في نقده للفلسفة انـــه غير مستجيب لداعي شكه ، لان قارىء كتاب التهافت يلاحظ ان صاحبه لا يزاول عملية الهدم فحسب ، بل هو يهدم ليفسح المجال لشيء معـــه لا يقوم على هذه الانقاض)

وذلك حيث يقول الغزالي : (ونحن لم نلتزم في هذا الكتاب الا تكذيب مذهبهم ، وأما اثبات المذهب الحق فسنصنف فيه كتابا بعدالفراغ من هذا ... ونعتني فيه بالاثبات كما اعتنينا في هـــذا بالهـــدم)

وهذا واضح في ان الغزالي كان متثبتا من وفسه في هدمه لمذهب الفلسفة ، ومتثبتا من نفسه في عزيمته اقامة بناء عقيدي يحل محلها ، فأين أثر الشك عند الغزالي ؟

على ان شك الغزالي في اعترافاته لم ينصب على عقيدته وانمـــا انصب على مسالك العقيدة ، والعقيدة موجودة عند الغزالي قبل نظره في هذه المسالك ، ثم تشكيك الغزالي في مسالك الادلة ضعيف جدا ، لان الغزالي لا يغيب عنه ان البصر آلة ادراك للمحسوسات وتختلف باختلاف قوتها الخلقية ، وباختلاف قرب الاشياء وبعدها عنها ، وليس ذلك تضليلا في حقيقة العلوم ، وانما هو نقص في الآلة وقوله في العقل أضعف من قوله في الحس ، لانه مبني على فرض وتخيل، لم يجد ما يقويه به الاحالة النوم والا ما يدعيه الصوفية من حالة ادراكية فوق ادراك العقل .

وكان أبا حامد رضي الله عنه أراد ان يخلص الى هذه النقلة العظيمة في حياته بالتمهيد لها بهذا القول في الشك ، تلك النقلة التي غيرت حياة أبي حامد تغييرا كليا ، ونعني بها صيرورته الى التصوف والصوفية تخلصا من حياته الاجتماعية التي عاشها طوال عمره الا قليلا مما أدركه في ظل الصوفية من الهدوء النفسي والعقلي وكان أبو حامد مشتبكا في حياته الإجتماعية بقيود صعبة ، لا يخلص منها الا بضرب من هذا اللون الفكري الذي يضعف القيود الاجتماعية ويمهد الطريق أمامه للخـــلاص منها .

وهذا موضوع يحتاج الى بحث خاص ، وله أهميته في حياة ابي حامد ونرجو ان نتمكن من تحقيقه اذا انسأ الله في الاجل ، وإنمـــا قصدنا هنا الى التنبيه لعل احدا من الباحثين يشمر عن ساعد الجـــد فيحقق هذا الجانب من حياة هذا العبقري الذي شغل الدنيا بعلمه وعقله وروحه . رحم الله أبا حامد ورضي عنه وانزله منازل الصادقين .

فتاوى وآراء جريئة

والامام الغزالى يميل الى حرية العقل ، والانطلاق فى التفكير ، وله آراء مستقلة فى كثير من مسائل الدين يخالف فيها رأى الجمهور من العلماء ولكنها مدعمة بالدليل والبرهان .

ومن هذه المسائل التى أجاب فيها الغزالى برأى مستقـــل عن العصبية المذهبية ما أورده ابن خلكان فى ترجمة الكيا الهراسى اذ يقول وسئل الكيا عن يزيد بن معاوية فقال انه لم يكن من الصحابة لانه ولد فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأما قول السلف فى لعنه ففيه لاحمد قولان تلويح وتصريح ولمالك قولان تلويح وتصريح ولابى حنيفـه قولان تلويح وتصريح ولنا قول واحد التصريح دون التلويح وكيف لا يكون كذلك وهو اللاعب بالنرد والمتصيد بالفهود ومد من الخمر وشعره فى الخمر معلوم ومنه قوله :

أقول لصحب ضـ... الكأس شملهم :
وداعى صبابات الهوى يترنم
خـــذوا بنصيب ... نعيم ولذة :
فكل وان طال المدى يتصرم
ولا تتركوا يوم السرور الى غد :
فرب غد يأتى بما ليس يعلم

وكتب فصلا طويلا ثم قلب الورقة وكتب لو مددت ببياض لمددت العنان فى مخازى هذا الرجل .

رأى الغزالى

وقد أفتى الامام ابو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى مثل هـــذه المسئلة بخلاف ذلك فانه سئل عمن صرح بلعن يزيد بحكم بفسقه أم هل يكون ذلك مرخصا له فيه ؟ وهل كان مريدا قتل الحسين رضى الله عنه ، أم كان قصده الدفع ، وهل يسوغ الترحم عليه أم السكوت عنه أفضل، تنعم بازالة الاشتباه مثابا فاجاب لا يجوز لعن المسلم أصلا ومن لعـن مسلما فهو الملعون ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المســلم ليس بلعان) وكيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم ، وقـــد ورد النهى عن ذلك وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبى صلى الله عليه وسلم ، ويزيد صح اسلامه وماصح قتله الحسين رضى الله عنه ولا أمره به ولا رضاه ومهما لا يصح منه لا يجوز ان يظن ذلك به فان اساءة الظن بالمسلم ايضا حرام وقد قال تعالى (اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم)
وقال النبى صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن السوء) ومن زعم ان يزيد أمر بقتل الحسين رضى

الله عنه أو رضى به فينبغي ان يعلم به غاية الحماقه فان من قتل من الاكابر والوزراء والسلاطين فى عصره لو اراد ان يعلم حقيقه من الذى امر بقتله ومن الذى رضى به ومن الذى كرهه لم يقدر على ذلك وان كان الذى قد قتل فى جواره وزمانه وهو يشاهد ، فكيف لو كان فى بلد بعيد وزمن قديم قد انقضى ؟ فكيف يعلم ذلك فيما انقضى عليه قريب من اربعمائه سنة فى مكان بعيد ؟ وقد تطرق التعصب فى الواقعة فكثرت فيها الاحاديث من الجوانب فهذا الامر لا يعلم حقيقته اصلا واذا لم يعرف وجب احسان الظن بكل مسلم يمكن احسان الظن به ومع هذا لو ثبت على مسلم انه قتل مسلما فذهب أهل الحق انه ليس بكافر ، والقتل ليس بكفر بل هو معصية ، واذا مات القاتل فربما مات بعد التوبة والكافر لو تاب من كفره لم تجز لعنته فكيف من تاب عن قتل ولم يعرف أن قاتل الحسين رضى الله عنه مات قبل التوبة (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) فاذن لا يجوز لعن احد ممن مات من المسلمين ومن لعنه كان فاسقا عاصيا لله تعالى ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصيا بالاجماع بل لو لم يلعن ابليس طول عمره لا يقال له يوم القيامة لم لم تلعن ابليس ويقال للاعن لم لعنت ومن أين عرفت أنه مطرود ملعون والملعون هو البعيد من الله عز وجل وذلك غيب لا يعرف الا فيمن مات كافرا ، فان ذلك علم بالشرع وأما الترحم عليه فجائز بل هو مستحب بل هو داخل فى قولنا فى كل صلاة اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات فانه كان مؤمنا والله أعلم .

ومن هذه المسائل ما ذكره فى كتاب (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) اذ يقول : (وأنا أقول انى للرحمة تشمل كثيرا من الامم السالفة ، وان كان أكثرهم يعرضون على النار ، اما عرضة خفيفة حتى فى لحظة أو فى ساعة ، وأما فى مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار ، بل أقول : ان أكثر نصارى الروم والترك — يقصد كل من بعدت دياره عن دار الاسلام ولم تبلغهم الدعوة فانهم ثلاثة أصناف صنف لم يبلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم أصلا فهم معذورون ، وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون لهم وهم الكفار الملحدون وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا منذ الصبا أوصافا ضد أوصافه الجميلة ، فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الاول ، اى انهم معذورون ناجون ان شاء الله .

والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، والله ولى التوفيق

تم تحريره فى مساء يوم الجمعة ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٣٨١ هـ

الموافق ٢٧ من شهر ابريل سنة ١٩٦٢ م

من الشرق والغرب

تقدم

العالم والغرب

للمؤرخ الإنجليزي الكبير

أرنولد توينبى

ترجمة: عبد الواحد الإنبابى

مراجعة: صالح جودت

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد — روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ — ٤٥٤٠٥ — ٣١٦٢٥